جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

مطاعن الشعوبية على العرب والرد عليها من خلال النثر في العصر العباسي

الدكتورة

نجلاء عبد المطلب عبد الرحيم

مدرس الأدب والنقد فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

المقدمة

الحمد لله الذي جعل العرب بالإسلام خير أمة، أمرت بمعروف ونهت عن منكر في خير همة، والصلاة والسلام على سيد الأئمة، القاضي بالعدل والداعي إلى الفضل، من عمت سجاياه، وطابت عطاياه، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، ورسله الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن الشعوبية ردة فكرية، ونعرة عصبية، أحيتها مظالم بني أمية، إذ إنها آثرت أبناء العربية، وحطت من شأن الشعوب الأجنبية، فكان ذلك داعيًا إلى إحياء القوميات، في محاولة إلى اقتناص وسلب ما في يد الآخر من خيرات.

وقد كان للقومية الفارسية الدور الأكبر في نشأة الشعوبية إذ إنهم قبل الإسلام كانوا أصحاب كيان مسيطر على نصف الكرة الأرضية، وكان يخضع لملكهم ما يقرب من نصف الناطقين بالعربية، فلما جاء الإسلام أدال دولتهم، وسفه معتقدهم، فكانت الخلافة غير الراشدة فرصتهم في العودة إلى إحياء ملكهم وعودة دولتهم.

ولا شك أن للقومية الفارسية من الطقوس الدينية والعادات الاجتماعية والسياسية، ما يختلف اختلافًا جذريًا مع البيئة العربية، غير أن من صح إسلامه كان خيرًا وبركة على الدنيا والدين، ومن اتخذ التقية مذهبًا فأظهر الولاء، وأضمر العداء، فهؤلاء هم الشعوبيون الذين ينتظرون الفرصة السانحة، والراية اللائحة.

وبقيام الدولة العباسية عاد لغير العرب كثير من التقدير والاعتبار، وشغلوا وظائف قيادية هامة، وشعروا بالفخر والتمكين، وأن الحضارة لهم، والبداوة لغيرهم، وهكذا سعوا إلى سحب البساط. وقد فطن لهم أوائل وعظماء خلفاء بني العباس من أمثال الرشيد، والمأمون ونكلوا بهم، غير أن ذلك لم يرد الباقين عن غيهم، بل أنهم

صاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم، وهكذا كثرت الادعاءات والاتهامات والمطـــاعن جهة كل ما هو عربي.

وكان الأدب بنوعيه الشعر والنثر هو ميدان الصراع وحلبة اللقـــاء. وكمـــا كـــان للشعوبية أدباؤها الذين توفروا للنيل من العرب، فقد كان للعرب ومن صح إسلامه من الموالي أدباء يردون تكذيب المكذبين، ودحض حجج المبطلين، بل ونالوا منهم أضعاف ما نالوا، إذ الملك الناسخ أقوى من الملك المنسوخ، وإلا كيـــف ســـطعت شمس الحضارة العربية والإسلامية على أرجاء الكرة الأرضية.

وفي سياق ما ذكر يتبين أن دوافع هذا الموضوع كالتالي:

أولاً ــ ظهور الشعوبية من جديد في عصرنا الحاضر، وازدياد النفـــوذ الفارســـي (إيران) في العراق، واليمن وغيرهما من الدول العربيـــة وإذكـــاء نـــار الخـــلاف المذهبي والسياسي في معظم أرجاء الدول العربية، بالتعاون مع الدول الاستعمارية، واستغلال معدومي الخبرة السياسية والدينية من التيارات الشـــبابية المدعيـــة أنهـــا إسلامية، وناتج كل ذلك للواقع العربي إنما هو زلزلة أركان ملكهم، والتهام أرجاء وطنهم.

ثانيًا ــ الشعوبية قديمًا كان لها خطرها وهو إزالة ملك العرب وهيمنتهم وهي الآن أشد خطورة مما كان؛ لأن قادة الشعوبيين في زمن الدولة العباســـية إنمـــا كـــانوا يكتسبون نفوذهم من حظوظ خلفاء بني العباس، فقد كانت الإمبراطورية العربية هي الحاكمة للعالم، أما الآن ففي أيدي العرب اليسير وفي أيدي غيرهم الكثير.

ثالثًا ـ الشعوبية تبين حركة التاريخ وسننه ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾[1]، فمعرفة التيارات المعادية، وأسباب نشأتها ومراحل نموها، وأرجاء أهدافها إنما هو وعي للتاريخ وحركته، وقد قالوا في ذلك:

ليس برجل ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن وعى أخبار ما قد مضى أضاف أعمارًا إلى عمره

رابعًا ـ الوقوف على المطاعن التي أرادت الشعوبية أن تنال بها من العرب، وتفنيدها وتكذيبها بردود شافية كافية تكيل الصاع صاعين، وتنسب الشين والرين إلى أين، وتَحْدوا بالنسب والشرف والمروءة والفضيلة إلى عين مدارجها وسبل مراداتها وغاياتها.

خامسًا ـ الرد على من زعم أن الشعر وحده هو الميدان الذي دارت عليه رحى حرب الشعوبية، بل النثر أيضًا كان ميدانها الفسيح، وهو صاحب اليد الطولى في تلك الحرب، وقد أوردت في هذا الموضوع من النصوص النثرية القدر الكافي للرد على هذا الزعم، فقد سار النثر مع الشعر جنبًا إلى جنب في معترك هذه الحرب واشتعال أوارها، وإخماد نارها.

سادسًا ـ كثرة وتنوع ألوان المعرفة من خلال كثرة المطاعن والرد عليها، فقد شملت البلاغة وقوة الفصاحة والأدوات المساعدة في ذلك وأساليب القتال وما يلزمها من أدوات، والحضارة والثقافة، كما شملت الكرم ومجده والبلاء فيه، ومعاملة المرأة والنظرة إليها، والأنساب وما يلزمها من رفق وأنفة وحمية، والشعر الذي ليس للعرب علم أصح منه، وأنه مستودع الشعور والحكمة وإرادة إدخال الخلل والخطل في كل ذلك، وما كان من رد وبيان وإتقان هنالك.

---

(1) البقرة: من الآية (٢٥١).

الفصل الأول

ويشمل ثلاثة مباحث:

المبحث الأول ــ تعريف الشعوبية لغةً واصطلاحًا

المبحث الثاني ــ الامتداد التاريخي للشعوبية

المبحث الثالث ـ الأسباب التي أدت إلى نشوء الشعوبية

المبحث الأول

تعريف الشعوبية لغةً واصطلاحًا

المعنى اللغوي للشعوبية:

جاء في لسان العرب: الشَّعْبُ: القبيلة العظيمة، والشَّعْبُ أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، أي يجمعهم ويضمهم، والشَّعْبُ ما تشعب من قبائل العرب والعجم، وكل جيل شعب، ... وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي أضافوا إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري.

والشعوب: فرقة تنفي فضل العرب على العجم، والشعوبي: الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم، ويجوز أن يكون الشعوب جمع الشعوبي، وهو الذي يصغر شأن العرب كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي[١].

وجاء في مختار الصحاح: الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع شعوب، وهو أيضًا القبيلة العظيمة[٢].

وجاء في المصباح المنير: الشَّعْبُ: ما انقسمت فيه قبائل العرب، والجمع شعوب، ويقال الشعب الحي العظيم، والشُّعوبية: فرقة تفضل العجم على العرب ونسب إلى الجمع؛ لأنه صار علمًا كالأنصار[١].

---

(١) لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبدالله على الكبير ــ محمد أحمد حسب الله ــ هاشم محمد الشاذلي، ج٤، ط دار المعارف، (بدون تاريخ)، مادة (ش ع ب)، ص٢٢٧٠.

(٢) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، ط دار القلم، بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ)، مادة (ش ع ب)، ص٣٣٨.

وجاء في المعجم الوجيز: الشَّعْب: الجماعة من الناس تخضع لنظام اجتماعي واحد، والجمع شعوب، ... والشعوبية نزعة في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على غيرهم، وتحاول الحط منهم، والواحد شعوبي(٢).

ومن هنا يتضح لنا أن كتب المعاجم أجمعت على أن الشعوبية تحقر العرب، وتصغر من شأنهم، وتجردهم من كل فضل.

المعنى الاصطلاحي للشعوبية:

الشعوبية هي "حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب، كان العراق هو المسرح الذي ظهرت عليه، وترعرعت فيه؛ لأنه كان ملتقى العنصر العربي الغالب بالعنصر الفارسي المغلوب، وهي حركة بدأت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وبقيت مستترة طوال العصر الأموي، حتى إذا نجح العباسيون في إنشاء دولتهم، واستخدموا الموالي، واستعملوهم في المراكز الهامة، وأسندوا إلى بعضهم مسئولية الحكم، وأطلقوا لهم الحرية، أحسوا بذواتهم، وتسلطت عليهم النزعة القومية، فقويت حركة الشعوبية بينهم، وتصاعد خطرها، إذ تحولت إلى ما يشبه المنظمات التي كان يشرف عليها، ويخطط لها، ويتعدها ويساعدها رؤساء من الوزراء والأدباء والكتاب والشعراء من الموالي الفرس"(٣).

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، تحقيق: الدكتور عبدالعظيم الشناوي، ط دار المعارف، الطبعة الثانية، (بدون تاريخ)، مادة (ش ع ب)، ص٣١٣، ٣١٤.

(٢) المعجم الوجيز، إعداد: مجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم عام ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م، ص٣٤٣، ٣٤٤.

(٣) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، تأليف الدكتور حسين عطوان، ط دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ)، ص١٤٩.

وتُعد حركة الشعوبية "حربًا سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكًا لا يقل أثرًا عن اشتباك الأسنة والرماح"(١).

وقد تم تسجيل هذه الحرب بين الفريقين شعرًا ونثرًا، فكان من جهة الشعوبيين في الشعر أمثال بشار، والمتوكلي، والخريمي، ومهيار. وفي النثر (الكتب) أبو عبيدة، والهيثم بن عدي، وسعيد بن حميد، وعلان الشعوبي، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدافع عن العرب وينتصر لهم، من أمثال محمد ابن يزيد الأموي، والجاحظ وابن قتيبة(٢).

وقد عرف الجاحظ الشعوبية بأنها نحلة حيث يقول: "اعلم أنك لم تر قومًا قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غُنْمًا من أهل هذه النحلة"(٣).

وقد ورد في كلام الجاحظ ما يدل على أن لفظ الشعوبية يطلق على الموالي الذين يطلبون التسوية بينهم وبين العرب، وعلى الذين يتعصبون للعجمية أيضًا، حيث يقول في معرض حديثه عن الشعوبية من خلال باب (كتاب العصا): "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية"(٤)، ويقول في موضع آخر في نفس الباب: "وقالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية"(٥).

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د/ حسن إبراهيم حسن، ج١، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، ط دار الجيل ــ بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٦هـ ــ١٩٩٦م، ص٢٧٩.

(٢) تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ط مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ــ١٩٨١م، ص٥٦، ٥٧.

(٣) البيان والتبيين، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ج٣، تقديم: أ.د/ عبدالحكيم راضي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، (بدون تاريخ)، ص٢٩، ٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص٥.

(٥) البيان والتبيين، ج٣، ص١٢.

وقد قيل عن الشعوبية بأنها: "نزعة أكثر منها عقيدة، فهي أشبه بالأرستقراطية، والديمقراطية، بل هي في الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب أرستقراطية العرب؛ لذلك لا نستطيع أن نحصر معتنقيها، فهم في كل بلد، وفي كل قطر، ومن كل جنس، كما لا نستطيع اليوم أن نحصي عدد من ينزعون إلى الديمقراطية، أو الاشتراكية"(١).

ولم يعرف لفظ الشعوبية إلا في العصر العباسي الأول، أما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفية لا تستطيع الظهور، وإذا ظهرت أخمدت، وذلك بدليلين ظنيين؛ الأول: أن هذه النزعة التي تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم لم تتخذ شكلاً قويًا واضحًا يصح أن يطلق على معتنقيه اسم إلا في هذا العصر بعد أن اتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب. والدليل الثاني: لم يوجد من أطلق هذا الاسم على هذه النزعة في العصر الأموي، نعم إن الأصفهاني في الأغاني قال: إن إسماعيل ابن يسار كان شعوبيًا، ولكن من الواضح أن الأصفهاني وهو عباسي سَمي إسماعيل بالاسم الذي يستحقه لما رفع شأن العجم، وتغنى في ذلك بشعره أمام هشام بن عبدالملك، وليس المعنى أن إسماعيل بن يسار عُرف بذلك الاسم في عصره، كذلك أن أكثر أسماء المذاهب التي وضعت في صدر الدولة الأموية، لم يكن فيها ياء النسبة كالخوارج، والشيعة، والمرجئة، والمعتزلة، ولم تؤلف هذه النسبة إلا في آخر العهد الأموي، أو صدر العصر العباسي كالجَهْميَّة، والقَدَرية، ثم الراوندية، والخُرَّمية، والشعوبية، وأقدم الكتب التي استعملت لفظ الشعوبية كتاب البيان والتبيين للجاحظ(٢).

"والشعوبيين كانوا أصنافًا مختلفة، منهم فرس، ومنهم نبط، ومنهم قبط، ومنهم أندلسيون، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة، فالفرس صبغت صبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد،

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص٧٦.
(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، مرجع سابق، ص٧٤، ٧٥ (بتصرف).

والنبط ظهرت في شكل عصبية للأرض وزراعتها، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على الصحراء ومعيشتها، والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب، وأرادوا طردهم من بلادهم، وكانت آخر ثورة كبيرة في عهد المأمون، فلما هزموا لجئوا إلى الكيد بأعمال الحيلة، واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج، وفي الأندلس ظهر بن غَرْسيَّة، ووضع رسالته في الشعوبية، ورد عليه كثير من العلماء"(١).

وعليه فالشعوبية "لم تشع بين الموالي والفرس فقط، فقد امتدت إلى سائر الأمم التي أذعنت للعرب، كالنبط، والقبط، والأندلسيين، والزُّط من أهل السند، والزنج من أهل أفريقية، كما يصور ذلك الجاحظ في رسالته "فخر السودان على البيضان"، وجمع بين هؤلاء الشعوبية على اختلاف أصولهم وأجناسهم مفاخرتهم للعرب، واستطالتهم عليهم، وحطهم من شأنهم، وعداؤهم لهم، ولكن شيوع الشعوبية بين الأمم الأخرى لا يقلل من الدور الكبير الذي لعبه الموالي الفرس فيها، فهم أصل الداء وموطن البلاء، إذ كانوا أكثر من غيرهم عددًا وقوة، وتولوا المناصب الرفيعة في الدولة العباسية، مما هيأ لهم أن يذكوا تلك الحركة، وينفثوا سمومها"(٢).

وقد عرفها ابن قتيبة بقوله: "فإنها بفرط الحسد ونَغَل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة، وتُلحق بها كل رذيلة، وتغلو في القول، وتُسرف في الذم، وتبهت بالكذب، وتكابر العيان، وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتَغَصُّ من النبي ﷺ بالشجا، وتطرف منه على القذى، وتبعد من الله بقدر بعدها ممن قرَّب واصطفى"(٣).

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، مرجع سابق، ص٧٧.
(٢) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، د/ حسين عطوان، ص١٤٩، ١٥٠.
(٣) فضل العرب والتنبيه على علومها لابن قتيبة، تحقيق: د/ وليد محمود خالص، ج١، ط المجمع الثقافي، أبو ظبي ــ الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص٣٣.

وقد تحدث ابن قتيبة عن حجم هذه النزعة الشعوبية المناهضة للعرب، فقال: "ولم آرَ في هذه الشعوبية أرسخ عداوة، ولا أشد نصبًا للعرب من السفلة والحشوة، وأوباش النبط، وأبناء أكَرَةِ القرى، فأما أشراف العجم، وذوو الأخطار منهم، وأهلُ الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسبًا ثابتًا ... وإنما لهجت السفلة منهم بذم العرب؛ لأن منهم قومًا تحلوا بحلية الأدب، فجالسوا الأشراف، وقومًا اتسموا بميسم الكتابة، فقربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لآدابهم، والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم، وخُبْث عناصرهم، فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم، واعتزى إلى ملوكهم، وأساورتهم، ودخل في باب فسيح لا حجاب عليه، ونسب واسع لا مُدافع عنه، ومنهم من أقام على خساسة ينافح عن لؤمه، ويدعيَّ الشرف للعجم كلها، ليكون من ذوي الشرف، ويُظْهر بغض العرب يتنقصُها، ويستفرغ مجهوده في مشاتمها، وإظهار مثالبها، وتحريف الكلم في مناقبها، وبلسانها نطق، وبهممها أنف، وبآدابها تسلَّحَ عليها، فإن هو عرف خيرًا ستره، وإن ظهر حقَّره، وإن احتمل التأويلات صرفه إلى أقبحها، وإن سمع سوءًا نشره، وإن لم يسمعه نفر عنه، وإن لم يجده تخرَّصه"(١).

فالشعوبية إذن "لم تكن في السفلة وحدهم، وهؤلاء السفلة لم يكونوا الآخذين بزمامها، وإنما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية، وإن لم يرق نسبها إلى الملوك والأشراف، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعوبي في الأدب والعلم، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة بلغت أعلى المناصب في الدولة، فكانوا يمدونهم سرًا بجاههم وبمالهم، فقد ألّف عِلاّن الشعوبي كتابًا في مثالب العرب، فأجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألفًا، وإذا كان هؤلاء العقلاء الماكرون، هم رؤساء هذه الدعوة، كانت حربهم علمية أدبية دينية، أكثر منها ثورات ظاهرة"(٢).

---

(١) فضل العرب، مرجع السابق، ص٣٥، ٣٦.
(٢) ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج١، ص٨١.

ومن هنا يتضح لنا أن هناك اتفاق بين اللغويين والاصطلاحيين على أن الشعوبية هي تفضيل العجم على العرب كما هي الحط من شأن العرب وتحقيرهم، وهذه هي نزعة من نزعات ثلاث سادت في العصر العباسي:

(فالنزعة الأولى) تذهب إلى أن العرب خير الأمم، وقد أقاموا رأيهم على أربعة أسس:

الأساس الأول ــ وهو الأساس السياسي، ومؤداه أن العرب أمة عاشت حياتها مستمتعة بالحرية الكاملة، فلم تخضعها أمة أخرى، أو تفرض عليها سلطانها.

الأساس الثاني ــ وهو الأساس الاجتماعي، حيث تبرز للعرب مجموعة من القيم والصفات التي تميزوا بها، كالمبالغة في إكرام الضيف، والشهامة، والنجدة، وحفظ العهد، وإيواء اللاجئ دون مساءلته، وتحمل تبعة ذلك، هذا فضلاً عن حفظهم لأنسابهم، واعتدادهم بذلك في أحسابهم.

الأساس الثالث ــ وهو الأساس الديني، حيث أن الرسول ﷺ كان منهم، والإسلام كان فيهم، وهم الذين حملوا دعوة الهداية بهديه إلى سائر الشعوب، وجاهدوا في سبيل ذلك وتحملوا أكبر المشاق.

الأساس الرابع ــ وهو الأساس الفني، حيث أسلست اللغة لهم قيادها، فكانت خطبهم، وأشعارهم، وأقوال حكمائهم، وأمثالهم، طرازًا عاليًا في البيان، وقمة في البلاغة.

(والنزعة الثانية) تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، ولا أية أمة أفضل من أية أمة، فهم ذهبوا إلى التسوية بين الشعوب كافة منطلقين من منطلق إسلامي معتمدين على ما ورد في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، من تعاليم هذا الشأن، فمن هذا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**

خَبِيرٌ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[٢]، وقول الرسول ﷺ : (المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم)[٣]، وقوله ﷺ في خطبة الوداع: (ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى).

(**أما النزعة الثالثة**) فهي التي تميل إلى الحط من شأن العرب، وتفضل غيرهم من الأمم عليهم، وهؤلاء كان عليهم أولاً أن ينقضوا كل دعاوى العرب دعوة دعوة، وأن يثبتوا تقدمهم عليهم في كل جانب، وتفوقهم في كل مجال[٤]. وهذه النزعة هي مجال حديثنا في هذا البحث إن شاء الله تعالى، حيث نزد على هؤلاء ونكذبهم ونفند مطاعنهم على العرب.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٣) صحيح البخاري، الجزء العاشر، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ١٩٩٣م، ص٢٦٢، كتاب الفرائض، باب من تبرأ من مواليه، حديث رقم ٦٠٣٠.

(٤) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، د/ عز الدين إسماعيل، ط دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٠م، ص١٠٨ـ١١٠ (بتصرف).

المبحث الثاني

الامتـــداد التاريخي للشعـــوبية

كانت علاقة العرب في الجاهلية بدولتي الفرس والروم علاقة لا تُشعر بالقوة، فهم يتعاملون معهم تجاريًا، فهي ليست علاقة الند بالند، بل علاقة الفقير بالغني، والضعيف بالقوي، ومن تاجر من العرب، وانتقل إلى فارس والروم ورأى عظمتهم، استضعف نفسه، ... والعرب لما انتصرت قبيلة منهم على فرقة من الجيش الفارسي يوم ذي قار، عدّت ذلك فخرًا عظيمًا، مع أنه ليس بشيء ذي خطر، فأية فرقة لأية أمة، عرضة للانهزام، ولكن العرب أحسوا بالفخر العظيم لانتصارهم، كأنهم ما كانوا يتوقعون أن تهزم حملة فارسية، وعلى الرغم من ذلك كان العربي يعتز بقبيلته ويفتخر بها، فلما تغنوا بنصرهم في هذا اليوم تغنوا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب، ولم تتجلَّ في الغناء روح عربية خالصة.

فلما جاء الإسلام تكوّن العرب أمة، ولكن لم تنمح روح القبيلة، فوجدت نزعتان، نزعة العربي لقبيلته، ونزعته للدم العربي والأمة العربية، ومن هنا تبلورت نزعة العرب ضد الموالي[١].

"وباعتناق العرب للإسلام، وسماعهم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٣]، آمنوا بأن الإسلام خير الأديان، وأن الناس حولهم في ضلال، وأنهم حماة الإسلام، وحملة الدين القويم، وأن عليهم دعوة الناس كافة، ليتخلوا عن

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، ص٣٥ وما بعدها (بتصرف).
(٢) سورة آل عمران: من الآية (١٩).
(٣) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

دياناتهم السابقة، ويدخلوا فيه، وكان من بعد ذلك الجهاد، فظفروا بفارس، ودكوا عرشها، وانتصروا على الروم، وهزموا جيشها، واستولوا على كثير مما في أيديها، وعلى الجملة فقد رأوا أن سيادة العالم كانت للفرس والروم، فانتقلت فجأة إليهم، ... فرفع هذا من نفسية العرب، وغلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز، ليس من جنسه دم الفرس والروم، وأشباههم"(١).

ومن ثم "انقسم رعايا الدولة إلى طبقتين كبيرتين: طبقة السادة من العرب، وطبقة الموالي، وهي دون سابقتها في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع.

وقد تكونت طبقة الموالي هذه شيئًا فشيئًا منذ صدر الإسلام، ومن خلال حكم بني أمية من أولئك الذين كانوا يؤخذون أسرى في خلال الفتوح، وكانوا بمثابة أرقاء، وكان الولاة يبعثون منهم المئات، بل الألوف إلى بلاط الخليفة هدية، أو بدلاً من الخراج أو نحوه، والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته، أو قواده، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم، أو يبيعونه، فينتقل إلى الناس على اختلاف طبقاتهم، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولي، وكان هناك غير هؤلاء من الذين يدخلون في الولاء بالعقد وغيره.

وقد كان العرب يأنفون من العمل في المهن والحرف منذ وقت مبكر، وهم بعد تلك الانتصارات قد صاروا أشد أنفة، فلم يشغلوا أنفسهم إلا بالسياسة والحروب، في حين تركوا ما دون ذلك من الأعمال لطبقة الموالي، ومن ثم كان الموالي يشتغلون بكل الحرف اليدوية، وبالزراعة، وفي كسح الطرقات ... وما دون ذلك، ولكنهم كانوا كذلك يقومون بأعمال أرقى من ذلك كالأعمال الكتابية، والجباية، وهم في الوقت نفسه لم يكونوا مبعدين من الجيوش، فقد كانت كل قبيلة إذا خرجت للحرب خرج معها مواليها يحاربون إلى جانبها، ولكن جرى العرب على التمييز بين

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، ص٤٠.

العرب والموالي في الحروب، فكان العربي يحارب راكبًا، أما المولي فيحارب ماشيًا، كما كانوا لا يلحقون بديوان العطاء، ولم يعطوا نصيبهم من الغنائم إلا اليسير على سبيل المكافأة، ولم يسمح لهم بسكنى الأمصار، بل كانوا يدفعون إلى القرى، وكل ذلك لكي لا تتأثر حصيلة الخراج التي تكون الجزء الرئيسي في ميزانية الدولة، وعلى هذا الأساس من التمايز تحددت العلاقات الاجتماعية بين العرب والموالي"(١).

فكان العربي لا يزوج ابنته المولي وإن سما به أصل وجاه ...، وحدث أن مولي تزوج عربية، فلما علم الوالي بذلك فرق بينهما وجلد المولي مائتي جلدة، وحلق حاجبيه. كما أنه لا يجوز للمولي أن يزوج ابنته، بل كان من حق سيده، فإن زوجها أبوها كان للسيد أن يطلقها من زوجها، وفي هذه الحالة تعتبر الرابطة التي كانت قائمة غير شرعية.

ومن مظاهر السيادة العربية أيضًا، اختلاف دية العربي، ودية المولي، كما كانوا يكرهون الصلاة وراء الموالي، وكانوا لا يشركون الموالي في الصلاة على الموتى إذا حضرها بعض العرب، كما جعلوا للموالي مسجد خاص، وجبانة خاصة(٢).

وقد ظل العرب "إلى قيام الدولة العباسية إذا أقبل الواحد منهم من السوق ومعه شيء فرأى مولي، دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع المولي عن ذلك"(٣).

هذا الوضع الاجتماعي المهين للموالي ــ الذين كانوا قرب نهاية القرن الأول الهجري قد صاروا كثرة كاثرة ــ كان من أهم العوامل التي أحنقتهم على العرب

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، د/ عز الدين إسماعيل، ص٦٩، ٧٠.
(٢) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، تأليف: د/ عزيز فهمي، تحقيق: محمد قنديل البقلي، ط دار المعارف (بدون تاريخ)، ص١٨٣، ١٨٤ (بتصرف).
(٣) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، د/ عز الدين إسماعيل، ص٧٤.

بعامة، وعلى الأمويين وولاتهم بخاصة، ولم يخفف من هذا الحنق كثيـرًا أن فئـة منهم ــ كالحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعطاء ابن يسار، وربيعة الرأي، وابن جريح ــ كانوا من خيره التابعين، ولَقَوا كل إجلال وإكبار، لما كان لهم من مكانة علمية ودينية[١]؛ حيث إن الأوساط الدينية والعلمية مـا كانـت تتعصب لجنس، ولا دم، وإنما كانت تتعصب للدين والعلم وتقوّمها حيث كانـا (أي وتقوم العصبية حيث كانت لجنس أو دم)[٢].

"فكان يقابل هذه العصبية العربية عصبية أخرى من الموالي وخاصة الفرس، فقـد تملكهم العَجَبُ، كيف غلبهم العرب! وعبّر بعضهم عن هذا المعنى: بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر! وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم، وعـزهم التالد، وأنهم أهل الحضارة العظيمة، ومن عرفوا كيف يسوسون الملك، ويـديرون الحكم، وأنهم لما حكموا لم يكن لهم إلى العرب حاجة، ولما حكم العرب لم يستعطوا أن يحكموا إلا بمعونتهم"[٣].

ومن هنا بدأت تظهر عصبية الموالي في بعض المواقف للشعراء، حيث أن وضـع الموالي الاجتماعي حينذاك لم يكن يمكنهم في الوقت نفسه من تنظيم صفوفهم فـي شكل ثورة على نظام الحكم، فكانوا يضمرون غير ما يبدون، ولم يستطع الواحـد منهم أن يتعرض صراحة للنيل من العرب لقوة قبضة الدولة الأموية عليهم[٤].

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٤.
(٢) ضحى الإسلام، ج١، ص٤٦.
(٣) المرجع السابق،، نفس الصفحة.
(٤) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٤ (بتصرف).

ويـــدل على ذلك ما روي عن الشاعر (إسماعيل بن يسار)[*]، فقد روي أبو الفرج الأصفهاني "أن إسماعيل بن يسار النسائي استأذن على الغمر بن يزيد ابن عبدالملك يومًا فحجبه ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكي، فقال له الغمر: مالك يا أبا فائد تبكـــي؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي، ومروانية أبي أحجب عنك؟!، فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر، وخـــرج مـــن عنده، فلحقه رجل فقال له: أخبرني ويلك يا إسماعيل! أي مروانية كانـــت لـــك أو لأبيك؟ قال: بغضنا إياهم، امرأته طالق إن لم تكن أمّه تلعن مروان وآله كل يـــوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقـــال: لعن الله مروان تقربًا بذلك إلى الله تعالى، وإبدالاً له مـــن التوحيـــد، وإقامـــة لـــه مقامه"[١].

"وهذا الخبر يكشف لنا في وضوح كيف كانت وجـــوه المـــوالي، الـــذين اتصـــلت الأسباب بينهم وبين البيت الحاكم، يبدون غير ما يضمرون"[٢].

وهذا الشاعر نفسه لم يستطع أن يتعرض صراحة للنيل من العرب، وعلى الـــرغم من ذلك عاقبه هشام بن عبدالملك على تجرؤه أمامه ومدحه لقومه، وقد روي هـــذا الخبر أبو الفرج الأصفهاني حيث يقول: "إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبدالملك في خلافته وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره، فأستنشده وهو

(*) هو **إسماعيل بن يسار النِّسائي** مولي بني تميم بن مُرّة: تيم قريش، وكان منقطعًـــا إلـــى آل الزبير، فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، وفد إليه مع عروة بن الزبيـــر، ومدحـــه ومدح الخلفاء من ولده بعده، وعاش عمرًا طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية، ولم يدرك الدولة العباسية، وكان طيبًا مليحًا مندرًا بطالا، مليح الشعر، وكان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير. ينظر: الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق: د/ إحسان عبـــاس، د/ إبـــراهيم السّعافين، الأستاذ بكر عباس، المجلد الرابع، ط دار صار ــ بيروت، الطبعـــة الثالثـــة ١٤٢٩هـ ــ٢٠٠٨م، ص٢٨٥.

(١) المرجع السابق، ص٢٨٦.

(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٥.

يرى أنه ينشد مديحًا له، فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم ... حتى انتهى إلى قوله:

إني وجَدِّك ما عُودِي بـــذي خَـــوَرٍ ... عند الحِفَاظِ، ولا حَوْضي بمهدومِ
أصلي كريم، ومجدي لا يقاس بـــه ... ولي لسان كحد السيف مســـمومِ
أحمي به مجد أقـــوام ذوي حَسَـــبٍ ... من كل قَرْمٍ بتاج الملك مَعْمـــومِ
جَحَاجِحُ، ســـادةٌ، بُلْـــجٌ، مَرازبـــة ... جُرْدٍ، عِتاقٍ، مساميحٍ، مطـــاعيمِ
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهُرْمُزَانِ لفخر أو لتعظـــيم ؟!
أسْد الكتائب يوم الرَوع إن زحفـــوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والـــروم
يمشون في حلـــق المـــاذي ســـابغةً ... مَشْيَ الضراغمة الأسد اللهـــاميم
هناك إن تســـألي تُنْبَـــيْ بـــأن لنـــا ... جرثومةً قَهَرَت عـــزَّ الجـــراثيم

فغضب هشام، وقال له: ... أعلى تفخر، وإياي تنشد قصيدة تمـــدح بهـــا نفســـك، وأعلاج قومك غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمـــر بإخراجه وهو يشرّ، ونفاه من وقته، فأخرج عن الرصافة منفيًا إلى الحجاز، وكـــان مبتلى بالعصبية للعجم، والفخر بهم، فكان لا يزال مضروبًا محرومًا مطرودًا"(١).

"هكذا كان عقاب إسماعيل حين أطلق لنفسه العنان، فراح يكشف عن دخيلة نفســـه، وقد كان مدار حديثه عن الفخر بأصوله الفارسية، وكرم محتده، وأمجاد قومه، وما كان لهم من حضارة باذخة، وهذا الفخر ــ وإن لم يتعرض فيه الشاعر إلى العرب بأي إهانة ــ كان في تقدير هشام إهانة له وللعرب في شخصه، لما يحمله من نبرة الاعتزاز بقومية غير القومية العربية"(٢).

---

(١) الأغاني، ج٤، ص٢٩٤، ٢٩٥.
(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٦.

لذا "كره الموالي الحكم الأموي كراهة عميقة، فسعوا في إسقاطه، وقد كانت وجهة نظرهم: أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا، وترقبنا انتقال الأمر من خليفة إلى خليفة، فكان أمر الظلم على السواء ــ اللهم إلا إذا استثنينا عمر بن عبدالعزيز، وهو فذ ــ وليس في الإمكان أن نحول الأمر من العرب إلى الفرس، فيكونوا هم الحاكمين؛ لأن السلطة الكبرى لا تزال في يد العرب؛ ولأنه إذا أثيرت هذه الدعوة تجمّع العرب، وغير الفرس من الموالي علينا، فلندعُ إذًا إلى نقل الخلافة من يد الأمويين إلى يد الهاشميين ...؛ لأن الهاشميين عرب؛ ولأنهم أقرب إلى رسول الله ﷺ من الأمويين، وهذا يسرع في قبول الدعوة"(١).

نضيف إلى ذلك "أن بني أمية كانوا قد أساءوا إلى آل علي بن أبي طالب، وتتبعوهم بالقتل حذرًا من أن ينتزعوا منهم الخلافة، واجتمع الموالي حول آل علي، وقاموا بدعوة سرية للثورة على الحكم الأموي، ودعوا إلى الرضا من آل محمد، واتخذوا السواد (العلم الأسود والثياب السود) شعارًا لهم مخالفة لبني أمية الذين كانوا (البياض) شعارًا لهم"(٢).

ولم يكتف الموالي بذلك، بل تتبعوا كل خارج على الحكم الأموي، ووقفوا معه، أيًا كان باعثه على الخروج، الدين أو السياسة، أو غير ذلك، وحاربوا في صفوفه مستميتين، ومع ذلك لم يشهر لموالي سيوفهم في وجه الدولة منفردين طوال القرن الأول، ... أذلت الدولة الموالي في القرن الأول إذلالاً فكانوا إمَّعاتٍ مع كل خارج

---

(١) ضحى الإسلام، ج١، ص٤٨، ٤٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي، تأليف عمر فروخ، ج١، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ط دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، أبريل ١٩٨١م، ص٣٥٢، ٣٥٣.

عليها، ولم يخرجوا منفردين قط ، كالعصفور يلطم القفص بجناحيه فينقر أسلاكه ما غفل صاحبه أو شُغل عنه، فإن انتبه إليه وفرغ من أمره عاد مطوي الجناح[١].

وقد تنبه البعض إلى الخطر الداخل على العرب من خلال هؤلاء الموالي، فهذا (نصر بن سيار)[*]، عامل الأمويين على خرسان "انتبه إلى أن الموالي صاروا قوة لا يستهان بها، فراح يستصرخ القبائل العربية هناك أن تترك ما هي فيه من منازعات، وأن تحتشد لمواجهة هذا الخطر المحدق"[٢]، فقال في أبيات له مشهورة[٣]:

أبْلِغ ربيعةَ في مَرْو وفي يمنٍ ... أَن اغضبوا قبل أَلا ينفع الغضَبُ
ما بَالُكُمْ تَنْشبُون الحرْبَ بينكُمْ ... كأن أهل الحِجَى عن رأيكم غُيَبُ
وتتركون عدوًا قد أحاط بكم ... مِمَّنْ تأَشب لا دينٌ ولا حَسَبُ
لا عُرْبَ مثلكم في الناس تعْرِفُهُم ... ولا صريحٌ موالٍ إن هُمُ نُسِبوا
من كان يسألني عن أهل ديَنهم ... فإن دينهُمْ أن تَهلك العَربُ
قومٌ يقولون قولاً ما سمعتُ بهِ ... عن النبي ولا جاءت به الكتُبُ

---

(١) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، ص١٨٧ (بتصرف).

(*) هو **نصر بن سيار بن رافع بن حرى بن ربيعة بن عامر بن عوف الليثي الكناني**، ولد عام (٤٦هـ)، وتوفى عام (١٣١هـ)، نشأ على أرض خرسان، عينه هشام بن عبدالملك واليًا على خرسان، فأحسن الولاية والجباية، وكون اتحادًا عربيًا للقبائل المستوطنة في خرسان، ووصد في خرسان دعائم السلم، وحين قتل الخليفة الوليد بن يزيد على يد ابنه يزيد بن الوليد انقسمت القبائل على نفسها، وهنا انتبه نصر بن سيار إلى ازدياد نفوذ الموالي. ينظر: مقدمة ديوان نصر بن سيار الكناني أمير خراسان، تحقيق: عبدالله الخطيب، ط مطبعة شفيق، بغداد ــ الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ ــ١٩٧٢م، ص٧ــ١١.

(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٧.

(٣) تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٧، ط دار المعارف ــ مصر، الطبعة الثانية (بدون تاريخ)، ص٣٦٤، ٣٦٥.

ولكن الصراع كان مستعرًا بين القبائل العربية من المضرية واليمانية، ويعمل الموالي على تأجيج نار الفتنة بين هذه القبائل، ولذا لم يستجب أحد لنصر ابن سيار، فانتهز الموالي هذه الفرصة؛ حيث أنهم لا يحلمون بنقل الخلافة إليهم، فلم لا ينتصرون للدعوة الهاشمية؟ سواء في العلويين أو العباسيين، وهنا يتحرك العباسيون فيتصل إبراهيم الإمام بأبي مسلم الخرساني، ويعهد إليه بالإسراع إلى خرسان، ويلتف بأبي مسلم مائة ألف مولي تظلهم الراية السوداء (الراية العباسية)، وهنا لأول مرة نشعر بسيادة الموالي، فنصر بن سيار يسرع إلى أبي مسلم يعرض عليه محالفة مضر، والحزب اليماني الربعي يطلب إلى أبي مسلم محالفته، وأبو مسلم يدل على هؤلاء وأولئك ويطلب إليهم أن يوفدوا وفودهم لتنظر في أمرهم، ويلتقي عنده وفد مضر، ووفد اليمن وربيعة، ويخطب خطباء كل وفد بين يديه، ثم يعلن أبو مسلم الوقوف مع اليمن وربيعة أي مع العباسيين، وتزحف جيوش أبي مسلم إلى العراق، وتستولي على البدو مدينة بعد مدينة، أما الموقعة الفاصلة بين الجيوش العباسية، والجيوش الأموية، فتقع على نهر الزاب سنة ١٣٢هـ، ويقتل مروان بن محمد، وتطوى آخر صفحة في التاريخ الأموي[١].

وبسقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، نال الفرس بعض أمنيتهم، لا أمنيتهم كاملة، فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها وعمالها، ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر، فالخلفاء العباسيون، وكذلك العلماء والمؤرخون، مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس[٢].

"لقد كان العباسيون عربًا حقًا في أنسابهم، ولكنهم حين اتكأوا في بلوغ الحكم على العناصر الفارسية التي كانت تنبض بالشعور القومي إنما كانوا في الواقع يضعون الحدود الأخيرة لتفتح الإمبراطورية العربية من نحو، ويدكون معالمها من نحو

---

(١) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، ص١٩٠، ١٩١ (بتصرف).
(٢) ضحى الإسلام، ج١، ص٥٢ (بتصرف).

آخر، فلم يكن يربطها بالقيم العربية التي كان يرتبط بها الأمويون إلا أشجار النسب هذه التي كانوا يحرصون عليها ويتباهون بها ... وهنا أدرك الموالي من الفرس أنهم يشكلون قوة لا يستهان بها، وأنهم في مناخ الدولة الجديدة يستطيعون أن ينظموا صفوفهم، وأن يمسكوا بمقاليد الأمور في الدولة، ويستبدوا بها، وأن يعملوا على تقويض أركانها، حتى إذا لاحت الفرصة انقضوا فاستبدوا بالحكم لأنفسهم"[١].

وحاول العباسيون رد الجميل للموالي من الفرس فقربوهم إليهم، وبخاصة أهل خرسان، لما أبلوه مع أبي مسلم في طلب الخلافة لهم، فقد صار الموالي الفرس إذن رجال الدولة الجديدة[٢]، ونادى العباسيون بالتسوية بين العرب والموالي في المجتمع، وأعلنوا أن مجيئهم للحكم بداية عصر جديد من العدل والرفاه الاجتماعي، فأشركوا الفرس في الجيش والإدارة، بل وأقاموا أساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب، ووضعوا خطة لتعيين الوزير من الموالي إلى جانب الخليفة، وهو عربي، وقد اعتبر العباسيون أن الولاء لهم أساس كل شيء، وخلقوا بيروقراطية من الموظفين، وجعلوا من الكتاب قاعدتها الأساسية، وهذا بدوره أصل مفاهيم جديدة في الإدارة وطرقها، ووسع جماعة الكتّاب، وأعطاهم أهمية في الحياة العامة لم تكن لهم من قبل، ولا يخفى أن جل هؤلاء من الموالي، وأنهم كفئة ينظرون نظرة تمجيد إلى التراث الثقافي الساساني ويرجعون إليه في الكثير من قيمهم ومفاهيمهم، أيضًا غير العباسيون الوجهة التي كانت سائدة في تكوين الجيش والاعتماد فيه على العرب، وكونوا قوات نظامية مهنتها القتال، وتتألف من الفرس،

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٧٩، ٨٠.
(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٨٠، ٨١ (بتصرف).

وعامتهم من خرسان، ومن العرب، وهذا أكد المشاركة في السلطة وأعطى الخرسانيين أهمية كبيرة(١).

وقد كان لنفوذ الموالي وخاصة الفرس في الدولة العباسية مظاهر عدة:

١ــ قصور الخلفاء ملئت بالموالي، يُستخدمون في أعمال شتى، وبيوت الحريم ملئت بالخصيان.

٢ــ قصْر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريبًا.

٣ــ نفوذ العادات، والتقاليد الفارسية، كإحياء يوم النيروز، ولبس القلنسوة.

٤ــ انتشار الثقافة الفارسية(٢).

وكان من المفروض أن يُرضي كل هذا الموالي الذين نادوا بالمساواة بينهم وبين العرب إن كانت دعوتهم صادرة عن إيمان بمبادئ الإسلام.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تغير وضع الموالي تمامًا في الدولة العباسية عنه في الدولة الأموية، "فإذا كنا قد رأينا إسماعيل بن يسار المولي يقف ساعة بباب الغمر الأموي ينتظر الإذن بالدخول عليه، فإننا نرى الآية الآن وقد انعكست، فقد كان العرب إذا قصدوا الخليفة رأوا الخراسانيين يدخلون عليه كأنهم أهله، في حين لا يؤذن لهم بالدخول عليه إلا بعد عناء"(٣)، فقد رُوي في الأغاني أن (أبا نُخَيلة)(*)،

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية، د/ عبد العزيز الدوري، ط دار الطليعة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٨١م، ص٣٠ــ٣٢ (بتصرف).

(٢) ضحى الإسلام، ج١، ص٦١.

(٣) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٨٢.

(*) **أبو نُخَيلة**، اسمه لا كنيته، ويكني أبا الجنيد، وهو ابن حزن بن زائدة بن لقيط بن هرم بن يثربي، وقيل أثربي بن ظالم بن مجاسر بن حماد بن عبد العزي بن كعب بن لؤي بن سعد بن زيد مناه بن تميم، وكان عاقًا بأبيه، فنفاه أبوه عن نفسه، فخرج إلى الشام وأقام هناك إلى أن مات

الشاعر وقف على باب أبي جعفر المنصور وأستأذن فلم يصل، وجعلت الخرسانية تدخل وتخرج فتهزأ به، حيث يرون شيخًا إعرابيًا جلفا، فيعبثون به، فقال له رجل عرفه: كيف أنت يا أبا نخيلة، فأنشد يقول:

أصبحتُ لا يملك بعضي بعضـــا أشكو العروق الآبضات(*) أبْضَا
كما تَشَكّي الأرحبيُّ(**) الغرْضا(+) كأنمّـــا كـــان شـــبابي قَرضـــا

فقال له الرجل: وكيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة؟ فقال:

أكثرُ خلــق الله مــن لا يُــدرَي من أي خلــق الله حــين يُلْقَــي
وحُلّـــةٌ تُنشـــرُ ثـــم تُطـــوى وطيْلَســـانٌ يُشـــتَرى فَيُغْلَـــي
لعبدِ عبــدٍ ، أو لمــولي مــولي يا ويحَ بيتِ المالِ ماذا يَلقــي؟(١)

فقد كان الموالي "أذلاء مستضعفين في العهد الأموي، ورأوا ضعيفًا يناضل الأمويين فانتصروا لهذا الضعيف ليتخلصوا من الأمويين، وليضمنوا سيادتهم في عهد هــذا الضعيف الذي انتصر على أيديهم، وقد تحققت لهم هذه السيادة فاصطبغت الدولــة بالصبغة الفارسية، وانتصرت الشعوبية، فجلجل صوتها في الشعر العباسي، أما أول

أبوه، ثم عاد وبقي مشكوكًا في نسبه، وانقطع وهو بالشام إلى بني هاشم، ولقب نفسه شاعر بنــي هاشم، فمدح خلفاء من بني العباس، وهجا بني أمية. (ينظر: الأغاني، ج٢٠، ص٢٥١).

(*) **الآبضات:** المتقبضة، والأَبْضُ الشد. (لسان العرب، ج١، مادة أ ب ض، ص٧).

(**) **الأرحبي:** النجيب: نسبة إلى قبيلة أرحب، وهم بطن من همدان إليهم تنسب النجائب الأرحبية. (لسان العرب، ج٣، مادة ر ح ب، ص١٦٠٧).

(+) **الغرض:** حزام الرحل، وقيل البطان للقتب. (لسان العرب، ج٥، مادة غ ر ض، ص٣٢٤٠).

(١) الأغاني، ج٢٠، ص٢٦٤، ٢٦٥.

الشعراء الذين تغنوا بهذه الشعوبية فهو بشار بن برد"[١]، فقد فخر بخراسان من خلال قصيدة مدح بها الخليفة المهدي، فقال[٢]:

دُونَ الخليفة منا ظِلٌّ مَأسَدةٍ ... ومن خُرَسان جُندٌ بعد أجنادِ
قومٌ يذبُّون عن مولي كرَامَتِهِم ... ويُحسنون جوارَ الوارد الصادي
لله درهموا جُندًا إذا حِمسُوا ... وشبتِ الحربُ نارًا بعد إخمادِ
لا يفشلون ولا تُرجى سُقَاطتُهُم ... إذا علا زأرُ آسَاد لأسادِ
إنا سراةُ بَنِي الأحرارِ وَقَّرَنا ... ركضُ الجيادِ وهزُّ المنصلِ البادِي
في كلِّ يوم لنا عيدٌ وملحمةٌ ... حتى سَبَانا بأسيافٍ وأغمادِ
لا نرهبُ القتلَ إن القتل مَكْرُمَةٌ ... ولا نضِن على راح بأصفادِ
سُقْنَا الخِلافَةَ نحدُوها أسنَّتُنَا ... والقاسطونَ على جَهْدٍ وإسهادِ
حتى ضربنا على المهدي قُبَّتَه ... فُساطَ مُلكٍ بِأطنابٍ وأوتادِ

كما كان بشار بن برد يتبرأ من الولاء، فيقول[٣]:

أصبحتُ مَولي ذِي الجلالِ وبَعْضُهم ... مَولَي العُرَيب فخذ بِفَضلك فافخَرِ
مولاك أكرَم من تميم كلها ... أهل الفَعَال ومن قريشِ المشْعَرِ
فارجع إلى مولاكَ غير مدَافَعٍ ... سبحان مولاك الأجَل الأكبَرِ!

ولم يكتف بشار بن برد بذلك، بل كان يدعو الموالي إلى نبذ ولائهم للعرب، فقد روي في الأغاني: "أن رجلاً من بني زيد شريف، قال لبشار: يا بشار! قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا، وترغّبهم في الرجوع إلى أصولهم، وترك

---

(١) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، ص١٩١، ١٩٢.
(٢) ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، ج٢، ط وزارة الثقافة الجزائرية ٢٠٠٧م، ص٢١٢، ٢١٣.
(٣) الأغاني، ج٣، ص٩٦، ٩٧.

الولاء، وأنت غير زاكي الفرع، ولا معروف الأصل! فقال له بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب، ولفرعي أزكي من عمل الأبرار، وما في الأرض كلب يود أن نسبَك له بنسبِهِ"(١).

ومن أشد الشعراء تعصبًا على العرب، وتغنيًا بالشعوبية (أبو نواس) فأصله من الموالي، وهو فارسي الأب والأم، فنراه يقول(٢):

دع الأطلال تسفيها الجنوبُ ... وتبكي عهد جدتها الخطوبُ
وخلِّ لراكب الوَجنَاء أرضًا ... تَحُثَّ بها النجيبة والنجيبُ
ولا تأخذ عن الأعراب لهوًا ... ولا عيشًا فعيشهم جديبُ
ذر الألبان يشربها أناس ... رقيق العيش عندهم غريبُ
بأرض نبتها عُشَرٌ وطَلْح ... وأكثر صيدها ضَبُعٌ وذيب
إذا راب الحليب فَبُل عليه ... ولا تحرج! فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق أريب
فهذا العيش لا خيم البوادي ... وهذا العيش لا اللبن الحليبُ
فأين البدو من إيوان كسرى؟! ... وأين من الميادين الزُّرُوب

فهنا نجد أبا نواس يعمل على تحقير العرب "فيصف حياتهم بالخشونة، وأن المتحضرين المنعمين المترفين لا مكان لهم فيها، فهي حياة جدب وشقاء وترحال على ظهور الجمال في الفيافي والقفار، وليس فيها مجال للهو والمتعة، وأقصى ما يستطيعه العربي فيها أن يشرب قعبا من لبن حليب، أو يصيبه رائبًا حامضًا فيكون

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٤١.
(٢) ديوان أبي نواس شرح محمود أفندي واصف، ط المطبعة العمومية بمصر، الطبعة الأولى ١٨٩٨م، ص٢٤٤، ٢٤٥.

بديلاً لديه من الخمر، وهو يدعو نفسه أو يدعو غيره إلى نبذ هذا كله، والسعي إلى مجلس اللهو والشراب الحقيقي، حيث يدور الساقي على الشرّاب بالكئوس"[١].

وهذه الشعوبية التي عبر عنها شعراء الموالي تعني أنهم أرادوا أن يرسموا لأنفسهم سياسة خاصة بعيدة المدى، ولكنها بالنسبة إليهم ممكنة، وهي سياسة ابتلاع الدولة، ثم الاستبداد بحكمها. وقد فطن الخلفاء العرب إلى ما يدبر له هؤلاء فكانوا دائمًا على حذر منهم، وبخاصة من عُرف منهم بميله إلى التشيع للعلويين، فإذا رأى الخلفاء من أحدهم هذا الميل عزلوه أو قتلوه، كما صنع المهدي بوزيره يعقوب بن داود، وكما صنع الرشيد بجعفر البرمكي وبالبرامكة، وكما صنع المأمون بالفضل بن سهل[٢].

فقد نكب المهدي بيعقوب بن داود "وهناك رأيان في سبب نكبته، فالرأي السائد يعزو ذلك إلى ميله للطالبيين، والثاني: أنه كان يرى الإمامة في الأكبر من ولد العباس، وأن غير المهدي من عمومته كان أحق بها، ومهما كان الأمر فإن سبب النكبة سياسي يتعلق بسلامة الدولة"[٣].

وقد نكب الرشيد بوزيره جعفر البرمكي والبرامكة، حيث أن الموالي عملوا على تكوين حزب يعمل في الخفاء "ويبدو أن زعامة هذا الحزب والرأس المدبر له كانت في أسرة البرامكة، خالد ثم ابنه يحيى، ثم جعفر بن يحيى، وعلى مدى هذه الأجيال الثلاثة كان الحزب ينمو، وربما كشف جعفر البرمكي عن خطة هذا الحزب في المجلس الذي كان يعقده لمعاونيه"[٤]. فقد كان لجعفر مجلس أنس يعقد في منزله

---

(١) في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ص٨٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٢، ٨٩ (بتصرف).
(٣) العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، د/ عبدالعزيز الدوري، ط دار الطليعة ــ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٧م، ص٩٦.
(٤) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص٨٨.

مرة في الأسبوع، يحضره أرباب الدولة، وأهل الوجاهة من الفرس، يلبسون أثوابًا لونها واحد، يخلعها عليهم جعفر، ويلبس هو مثلهم، ففي أحد هذه المجالس دار الكلام على أبي مسلم وبطشه، وكيف استطاع وحده أن ينقل الدولة الإسلامية من عائلة إلى عائلة، فقال جعفر: "لا يستغرب ذلك منه، ولا فضل له به؛ لأنه لم يدركه إلا بقتل٦٠٠.٠٠٠ نفس، سفك دماءهم صبرًا، وإنما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بغير سفك دم"، وقد كان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم، يحصون عليهم أنفاسهم، فلا يخلوا أن تبدر منهم بادرة تلميحًا، أو تصريحًا، والوشاة يعظمونها له، وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهما إلى جعفر، فكانا ينقلان إليه كل ما يدور في مجالس جعفر يوميًا، فنقلا إليه أن جعفر يعرض بنقل الدولة من العباسيين إلى الفرس أو العلويين، فأزداد خوف الرشيد منه، فلما كانت السنة التي نكبو فيها سنة ١٨٧هـ كان الرشيد قادمًا من الحج، وقد صمم على الفتك بجعفر، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان، أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية، وخلع عليه وعقد له لواءً وعسكرًا بالنهروان، فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم، فاغتنم الرشيد بُعد جعفر عن رجاله ومريديه، وهم في عسكره بالنهروان، وهو في بغداد، وبعث خادمه مسرورًا ليأتيه برأسه، فذهب إليه وقتله، ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى، وسائر أولاده، وبأخيه الفضل ليلاً، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع، فالرشيد فتك بالبرامكة؛ لأنه خافهم على سلطانه، ولما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان، وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية، وتعاقدوا على الأخذ بثار أبي مسلم والبرامكة، وتربصوا يترقبون الفرص، وتوجهت آمالهم إلى

المأمون؛ لأن أمه فارسية، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل إلى الشيعة العلوية، فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة أظفاره[١].

كما نكب المأمون بوزيره الفضل بن سهل أيضًا، فقد كان الرشيد قد جعل ولاية العهد من بعده لابنيه الأمين والمأمون على التوالي، وكان الرشيد ــ في حياته ــ قد جعل العراق والشام إلى المغرب للأمين، وولى المأمون شئون خراسان والمشرق، وكانت زبيده أم الأمين عربية، في حين كانت أم المأمون فارسية، ومن ثم التف الفرس حول المأمون، وكان الفضل بن سهل السرخسي ــ الذي كان يحيى البرمكي قد تعهده وقدمه في الدولة ــ قد أخذ جانب المأمون، وفقًا لخطة كانت في نفسه، هي إحياء الدور الذي كان للبرامكة، وإنعاش حزب الموالي مرة أخرى، ولا غرابة في هذا، فهو صنيعة يحيى البرمكي، وهو أصلاً من مجوس خراسان، وقد أسلم على يد المأمون نفسه، ولما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين، كان الذي يدبر الأمر بمرو ــ حيث يقيم المأمون ــ هو الفضل بن سهل، الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون، فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها، وما أسرع ما عين أخاه الحسن بن سهل على فارس، والأهواز، والبصرة، والكوفة، والحجاز، واليمن، وجعل مقره في بغداد، والمأمون ما يزال مقيمًا في مرو عاصمة خراسان، وقد تكشف للمأمون التدابير المشبوهة التي كان الفضل بن سهل يدبرها، فأمر بالرحيل إلى بغداد، وقد بيت للفضل أمرًا، لقد دس إليه ــ وهم في مدينة سرخس، في طريقهم إلى بغداد ــ أربعة من خدمه فقتلوه في الحمام، فلما جئ بهم إليه خشى أن يفتضح تدبيره، فأمر

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، تأليف جرجي زيدان، تعليق الدكتور/ حسين مؤنس، ج٤، ط دار الهلال ١٩٧٣م، ص١٦٤ــ١٦٦ (بتصرف).

بقتلهم، وبعث برؤوسهم الأربعة إلى الحسن بن سهل، يعزيه في أخيه، ويعينه خلفاً له[١].

ويذكر المؤرخون الكثير من الدلائل على أن الفضل بن سهل كان يهدف بسياسته إلى تحويل الدولة إلى ملك فارسي، ومن هذه الدلائل تشجيعه للمأمون على أخذ البيعة لعلي الرضا "وقد أشار الفضل بهذا الرأي لا حبًا لعلي الرضا، وإنما كان ذلك نتيجة لرغبته في إرجاع السلطة للفرس؛ لأن نقل الخلافة إلى علوي معناه إبقاء مركز الخلافة في خراسان، إذ إن أهل بغداد لا يرضون بمبايعة علوي مطلقًا، ويؤيد هذا قول نعيم بن خازم للفضل: إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويًا، ولولا إنك أردت ذلك، لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض، إلى الخضرة، وهي لباس كسري والمجوس، ثم التفت إلى المأمون وقال: الله الله يا أمير المؤمنين! لا يخدعنك عن دينك وملكك، حيث كان المأمون قد استشاره في أمر البيعة، وقد ذهبت هذه الصرخة سدى؛ لأن نفوذ الفضل كان قويًا فنفى نعيم بن خازم"[٢].

ومن الدلائل أيضًا على أن اتجاه سياسة الفضل بن سهل كان فارسيًا شكلاً وحقيقة، تقليده للساسانيين، حيث كان يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي، ونزل عنه، فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين وهو لقب الفضل، ويعود ويقعد عليه، وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة، فإن وزيرًا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي،

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص١٨٩، ١٩٠ (بتصرف).
(٢) العصر العباسي الأول، د/ عبد العزيز الدوري، ص١٦٢، ١٦٥.

ويقعد بين أيديها عليه، ولعل الجناحين هما أجنحة أهورا مزدا إلـه الخير عند الزرادشتية[١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد القضاء على الفضل بن سهل، ولى المأمون طاهر بن الحسين على خراسان، وبذلك فتح بابًا جديدًا للنفوذ الفارسي وللموالي أيضًا، وقيل "أن تولية طاهر على خراسان كانت برغبة منه، وأن سببها هو حذره من قرب المأمون، الذي لم ينس مقتل أخيه (الأمين)، إذ إن المأمون بكى يومًا بحضرة طاهر، فتمكن طاهر بعدئذٍ من معرفة سبب بكائه بعد أن قال المأمون لأحد ثقات الخدم، إني تذكرت محمدًا أخي (الأمين)، وما ناله من الذلة، فخنقتني العبرة، فاسترحت إلى الإفاضة، ولم يفوِّت طاهرًا مني ما يكره، وقيل أن طاهرًا كان مدفوعًا بطموحه العظيم لطلب هذه التولية؛ لأن خراسان كانت أهم ولايات الإمبراطورية"[٢].

"وما لبث طاهرًا أن أبدى بعد توليه أمورًا أنكرها المأمون عليه، واحتد بينهما الخلاف، حتى أن طاهرًا قطع الخطبة له يوم الجمعة، ومات طاهرًا مسمومًا، وخشي المأمون أن يؤلب عليه هذا الحادث الخراسانيين، فولى بعده ابنه طلحة بن طاهر، ولما توفى طلحة عين أخاه عبدالله مكانه، وكان عبدالله هذا أقدر أبناء طاهر، وأكثرهم دهاء، وقد أدى ذلك كله إلى تثبيت حكم العائلة الطاهرية في خراسان، ونشوء أول إمارة فارسية شبه مستقلة في إيران، وهكذا تحققت للموالي الفرس في عصر المأمون دولة هم حكامها الفعليون، لا تربطها بمركز الخلافة في بغداد إلا روابط شكلية"[٣].

---

(١) العصر العباسي الأول، د/ عبدالعزيز الدوري، ص١٦٤، ١٦٥ (بتصرف).
(٢) المرجع السابق، ص١٦٧، ١٦٨.
(٣) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص٩٢.

وحين تولى المعتصم الخلافة كان هناك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي، والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم القديمة، ويمحقوا العرب محقًا، مما أعد لظهور تيار شعوبي بغيض، لذا فكر المعتصم في عنصر جديد يعتمد عليه في حروبه غير الفرس، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر الرقيق التركي الذي كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه، حتى بلغت عدَّته ثمانية عشر ألفًا، وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها، وكان جمهور هذا الرقيق بدوًا جفاة، فكانوا يركبون الخيل، ويركضونها في الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦هـ، وسرعان ما قبض هؤلاء البدو على زمام الحكم، والمعتصم هو الذي هيأ لهم ذلك، لا بجعلهم جند الخلافة العباسية فحسب، بل أيضًا باتخاذه لهم مدينة خاصة، وجعلها عاصمة الدولة، فأتاح لهم الفرصة كي يُخَليَّ بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخرين بأيدهم يصرفونهم كما يشاءون، وحين تولى الواثق الخلافة سار على نهج أبيه في التعامل مع الأتراك، بل زاد تجنيه على الخلفاء من بعده، فقد ارتكب خطأ خطيرًا في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان ما استغل قواد الترك: إيتاخ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفى الواثق سنة ٢٣٢هـ، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك، وكذلك عزلهم(١).

(١) تاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الثاني، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، الطبعة الحادية عشر (بدون تاريخ)، ص٩: ١٢ (بتصرف).

وقد أدرك المتوكل خطر القواد الترك على الدولة، وعلى الخلافة، "فحاول أن يكف أيديهم فقتلوه، وصار ابنه المنتصر الذي اشترك معهم في قتله طوع بنانهم، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى، والدسائس، وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة، وعزله أو حبسه وقتله، على أن ظهور العنصر التركي قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً، وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر؛ لأنه استأثر بالأمر دون الفريقين، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء، ومن هنا بدأ ظهور الدولة المستقلة، وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية كالصفارية، والسامانية، والغزنوية، والعلوية بطبرستان، والأغلبية بتونس، والفاطمية ببلاد المغرب، والطولونية والإخشيدية بمصر، وبني أمية بالأندلس، والزيدية باليمن"(١).

"ومن أجل هذا لا نعجب إذا رأينا الشعراء الموالي في هذه الحقبة يرددون المعاني نفسها التي رددها من قبل بشار، وأبو نواس وأضرابهما، والتي كان مدارها على الإدلال على الدولة بما قدموه لها من عون في سبيل قيامها، وعلى الفخر بأصولهم وأمجادهم القديمة، وعلى تحقير العرب، والتهوين من شأنهم"(٢).

(فالخُرَيْميّ)(*) الشاعر يكثر في شعره من الاعتزاز بالنسب الفارسي والتحقير من شأن العرب، فنراه يقول:

إني امرؤ من سَرَاة الصُّغْدِ ألبسني عِرقُ الأعاجم جِلْدًا طَيِّبَ الخبر

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د/ حسن إبراهيم حسن، ج٢، ص١٦٠.

(٢) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص٩٢.

(*) هو **إسحاق بن حسان بن قوهي**، أبويعقوب الخريمي، شاعر مطبوع، هو أشعر المولدين، خرساني الأصل من أبناء السند، ولد في الجزيرة الفراتية، وسكن بغداد، واتصل بخريم (الناعم) فنسب إليه، أو كان اتصاله بابنه عثمان بن خريم، ثم اتصل بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، ومدحه، ورثاه بعد موته، وأدركه الجاحظ وسمع منه، وعمي قبل وفاته، وتوفى سنة ٢١٢هـ ــ٨٢٧م. ينظر: الأعلام، تأليف خير الدين الزركلي، ج١، ط دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م، ص٢٩٤.

ويقول:

أبا الصُّفْد بـــأس إذ تُعَيِّرُنـــي جُمْـــلُ ... سِفاها ومن أخلاَق جَارتِي الْجَهْـــلُ
فإن تفخري يـــا جُمْـــلُ أو تَتَجَمَّلِـــي ... فلا فخرَ إلا فوقـــه الـــدينُ والعقـــلُ
أرى الناس شَرْعًا في الحياة ولا يُرَى ... لقبرٍ على قبـــر عَـــلاَءُ ولا فضـــل
وما ضَرَّني أن لـــم تلـــدني يَحَـــابِرُ ... ولم تشتمل جَرْمٌ علـــي ولا عُكْـــل
إذا أنت لـــم تَحْـــمِ القـــديمَ بحـــادث ... من المجد لم ينفعك ما كان من قَبلُ

ويقول:

وناديت من مَرْو وبلـــخ فوارسًـــا ... لهم حَسبٌ في الأكرمين حَسِـــيبُ
فيا حسرتا لا دارُ قـــومي قريبـــة ... فيكثر مـــنهم ناصـــري ويطيـــب
وإن أبي ساسانُ كسرى بنُ هُرْمُزٍ ... وخاقانُ لِي لـــو تعلمـــين نســـيبُ
مَلَكْنا رقاب الناس في الشرك كلُّهم ... لنا تـــابعٌ طـــوع القيـــاد جنيـــبُ
نسُومُكوا خَسْفًا ونقضي عليكمـــو ... بما شاء منا مخطـــئ ومصـــيبُ
فلما أتي الإسلام وانشـــرحت لـــه ... صدور به نحـــو الأنـــام تُنِيـــبُ
تبعنـــا رســـول الله حتـــى كأنمـــا ... سماء علينا بالرجـــال تَصُـــوبُ[1]

ويقول "إبراهيم بن ممشاذ أبو إسحاق المتوكلي الأصبهاني، وكان قد خرج للعـــراق وكتب للمتوكل، ثم صار من ندمائه فسمي المتوكلي، ولم يكن بالعراق في أيامه أبلغ منه"[2]، وقد كتب بهذه الأبيات إلى المعتمد وهو بصحبة يعقوب بن الليث[3]:

أنا ابنُ الأكارِم من نسل جَـــمْ ... وحائزُ إرثِ ملـــوكِ العجـــمْ

---

(1) ضحى الإسلام، ج١، ص٨٢، ٨٣.

(2) معجم الأدباء ــ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تأليف ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: د/ إحسان عباس، ج١، ط دار الغرب الإسلامي، بيـــروت ــ لبنـــان، الطبعـــة الأولـــى ١٩٩٣م، ص١٢٨.

(3) المرجع السابق، ص١٢٩.

ومحيي الذي باد من عِـزّهم وعفَّي عليـه طـوال القـدم
وطالـبُ أوتـارهم جهـرةً فمن نام عن حقِّهم لـم أنـم
يهـمُّ الأنـامُ بلـذاتهم ونفسي تهـمُّ بسـوق الهمـم
إلى كلِّ أمرٍ رفيـع العمـادِ طويلِ النجاد منيـفِ العَلَـمْ
وإني لآمل مـن ذي العـلا بلوغ مرادي بخيـر القسـم
معي عَلَـم الكائنـاتِ الـذي به ارتجي أن أسـودَ الأمـم
فقل لبنـي هاشـم أجمعـين هلمُّوا إلى الخلع قبـلَ النـدم
ملكنـاكمُ عَنْـوَةً بالرمـاح طعنًا وضربًا بسـيفِ خَـذِمْ
وأولاكـم الملـكَ آباؤنـا فما إنْ وفيتم بشـكر الـنعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجازِ لأكلِ الضباب وَرَعْيِ الغْـنم
فإني سأعلوا سريرَ الملـوكِ بحدِّ الحسام وَحَـرْفِ القلـم

"وواضح أن قلب المتوكلي يضطرم حقدًا وضغينة على العرب، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسي القديم، وأنه قد وكل إليه أخذ الثأر أو الإثآر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني أمية مهـددًا لهم متوعدًا ومنذرًا أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي فـي الحجاز، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيـع والضباب، ويرعون الأغنام، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات، وكأنه نسى أن بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم، وأنهم لم يكونوا رعاة، ولا أهل جفاء وخيام، ولكنها الشعوبية العمياء الرعناء"(١).

(١) تاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الثاني، د/ شوقي ضيف، ص١٠٠.

المبحث الثالث

الأسباب التي أدت إلى نشوء الشعوبية وشيوعها

السبب الأول ـ (اجتماعي):

ويتمثل في استعلاء العرب على الموالي، فقد اعتدُّوا بأنسابهم وأحسابهم، وظنوا أنهم أمة ليس كمثلها أمة، وأنهم جنس لا يماثله جنس آخر، وحملهم على هذا النصر العظيم الذي أحرزوه بتغلبهم على الفرس والروم فتملكهم الشعور بالسيادة والعظمة، ونظروا إلى غيرهم من الشعوب نظرة السيد إلى المسود، فنظروا إلى الموالي نظرة احتقار وتعالي[١]. ويرد البعض بأن هذا السبب لم يكن الدافع الحقيقي لنشوء الشعوبية، حيث أن احتقار العرب للموالي فيه نظر، فالموالي لم يكونوا صنفًا واحدًا في الأساس، فهناك أناس من السبي أو من أسرى الحرب الذين استرقوا ثم اعتقوا، وهؤلاء قلة بين الموالي، وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين أسيادهم، ولا يرقَون إلى منزلتهم اجتماعيًا، ولكن جُل الموالي دخلوا الإسلام ووجدوا أن المجتمع لا يزال يتألف من قبائل، فانتسب الموالي إلى هذه القبائل، وهو انتساب ينطوي على الحلف، وهم بهذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة، كما أنهم بدورهم يعززون مكانة أحلافهم أو يساعدونهم ماديًا، وإن هذا الحلف وإن كان فيه شيء من عدم التكافؤ، إلا أنه لا ينطوي على مهانة أو احتقار، ومن ناحية مهنية نلاحظ أن الموالي لم يكونوا على درجة واحدة، فهناك كتاب الدواوين، وهؤلاء يتمتعون بمنزلة اجتماعية حسنة، وهناك التجار من الموالي، ولهم مكانة طيبة في المجتمع، ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير، وبين الموالي الفلاحون، وأصحاب الحرف، وهؤلاء في منزلة اجتماعية متواضعة، ولا يخفى أن القبائل

---

(١) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ص١٥١ (بتصرف).

تنظر إلى الفلاحة، وإلى الحرف نظرة لا تخلو من استهانة، ونظرتها إلى هؤلاء الموالي، تتجه إلى مهنهم بالدرجة الأولى(١).

أما في الأوساط العلمية والدينية، فنظرة المساواة كانت سائدة بين العرب والموالي "فالعالم يَشرُف بعلمه سواء كان مولي، أو عربيًا، ومن سادة التابعين من كانوا مواليَ، والناس منحوهم من الإجلال ما منحوا العرب، لا تفاضل بينهم إلا بالدين والعلم، فنجد الزهري، ومسروق بن الأجدع، وشُرَيْحًا، وسعيد بن المسيب، وقتادة، من سادة التابعين، وهم من العرب، كما نجد الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعطاء بن يسار، وربيعة الرَّأي، وابن جريح من سادة التابعين، وهم من الموالي، والناس ــ من عربٍ وموالٍ ــ يأخذون عنهم على السواء، وينتقلون من حلقة أحدهم إلى حلقة الآخر، حتى لنرى الحسن البصري ينقد خلفاء بني أمية، وينقد يزيد بن المهلب، ويرى أن يزيد وصحبه، وبني أمية وأصحابهم ضُلاّل مارقون! ويقول: والله لودِدتُ أن الأرض أخذتهم خسفًا جميعًا! ، ثم يأتي يزيد بن المهلب في رهط من قومه إلى الحسن، ويهم أحدهم بقتله فيقول يزيدُ: "أغمد سيفك، فوالله لو فعلت لأنقلب من معنا علينا"، ولما مات الحسن البصري تبع الناسُ كلهم جنازته، حتى لم يبقى بالمسجد من يصلي العصر، ولم يستنكر الناس عمل الحجاج في قتله الآلاف من العرب والموالي، كما استنكروا قتل سعيد بن جبير، وهو مولي لعلمه ودينه"(٢).

هذا بالإضافة إلى أن العرب "لم يكونوا جميعًا يهونون من شأن الموالي، ويتعالون عليهم تعاليًا طبقيًا، إنما كان ذلك فاشيًا في أوساط البدو، وأشراف القبائل العمال

(١) الجذور التاريخية الشعوبية، ص١٦، ١٧ (بتصرف).
(٢) ضحى الإسلام، ص٤٥، ٤٦.

لتمكن الروح الأعرابية منهم، وإحساسهم بالثقة والتفوق في أنفسهم بعد نجاحهم السريع في القضاء على الفرس والروم"[١].

وإذا كانت العصبية العربية هي التي أوجدت الروح الشعوبي، فغير معقول أن تكون أوجدت العصبية الشعوبية من العدم؛ لأنه من غير المعقول أيضًا أن تكون هذه الأمم المغلوبة على أمرها قد نسيت قوميتها، ولاسيما أمتي الفرس والروم، وقد زحزحهما عن سلطنة الأرض ملك العرب الجديد، فهذه الأمم ظلت حاقدة على العرب؛ لأن العرب سلبوها مجدها، ولطخوا بالفتح تاريخها، بل لقد حاولت هذه الأمم استرجاع مجدها بالتخلص من نير العرب، فقد حاول الفرس استرجاع ملكهم بزعامة آخر ملوكهم الساسانيين، وهو يزدجرد بن شهريار بعد قتل عمر بن الخطاب، كما أن قاتل سيدنا عمر هو فيروز الفارسي (أبو لؤلؤة) من أسرى نهاوند، ونرجح ترجيحًا قويًا أنه قتله انتقامًا لوطنه الذليل.

وكذلك القبط ثاروا على العرب ثورات عنيفة، وظلوا ثائرين حتى عصر المأمون، والخزر ظلوا يشاغبون على حدود أرمينيا، فمن البداهة أن تحقد هذه الأمم على العرب، وتتميز غيظًا، وقد نكبوها في كل ما تملك[٢].

السبب الثاني ـ (سياسي):

ويتمثل في "نبذ الأمويين للموالي، وإقصائهم لهم عن المراكز الحساسة بحكم تعصبهم للعرب، فكانوا إذا اختاروا واليًا راعوا أن يكون من العرب، وإن اختاروا قاضيًا أو إمامًا يصلي بالناس اختاروه من العرب أيضًا، وإن خرجوا عن ذلك ثار العرب عليهم، وطالبوهم بعزل المولي من وظيفته، وكانوا يمنعونهم من الانضمام إلى الجيش العربي النظامي؛ لأنه كان مؤلفًا على أساس قبلي، وكانوا لا يستعينون

---

(١) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ص١٥٤.
(٢) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، ص١٨١ (بتصرف).

بهم إلا عند الحاجة والضرورة، ولا يقبلونهم إلا متطوعين ومحاربين راجلين، في حين كان العرب يقاتلون على صَهَوات الجياد، وكانوا لا يفرضون لهم عطاءً ثابتًا، كما كانوا يفرضون للمقاتلة العرب"[١].

ويرى البعض أن هذا الرأي أيضًا يحتاج إلى نظر وتمحيص، حيث أن كتب التاريخ تذكر أن الأمويين استخدموا الموالي بكثرة في الدواوين، وهي عماد الإدارة المحلية، واستخدموهم في الجباية، والأمور المالية على نطاق واسع، وفتحوا المجالات العلمية أمامهم، ولكنهم لم يسلموهم الرئاسة، فالإمارة وقيادة الجيوش اقتصرت على العرب، ومع ذلك فإن بعض القادة كطارق بن زياد، ومقاتل بن حيان النبطي، وبعض الأمراء مثل يزيد بن أبي مسلم، أمير إفريقيا، كانوا من الموالي، أما مجال القضاء، وهو ضرب آخر من الرئاسة يستند إلى العلم والفقه، فقد فتح أمام الموالي حتى أن قاضي الكوفة في زمن الحجاج كان سعيد بن جبير، وهو مولي، وبعد هذا فإن احتفاظ العرب بالرئاسة يبدو طبيعيًا في ظروفهم السياسية والفكرية في العصر الأموي[٢].

السبب الثالث ـ (اقتصادي):

حيث أن المولي قد تعرضوا في عهد الأمويين للكثير من الظلم في هذا الشأن، فلم يكن الموالي يُعْفَون من دفع الجزية حتى بعد إسلامهم، وكان العربي لا يطالب إلا بالزكاة، وكان الذميون والموالي يؤدون الجزية والخراج، وكان المجموع قسمة بين المسلمين وذلك هو "العطاء"، وفي عهد معاوية كان عماله يحبسون العطاء عن الموالي، ودرج الخلفاء بعد معاوية على سنته، فكان الموالي يُقَدَّمون في صفوف القتال، ويحرمون من العطاء، حتى ولي الخلافة عمر بن عبدالعزيز، فسرعان ما أمر بصرف العطاء إلى عشرين ألف مولي كانوا يقاتلون في خراسان حبًا في سواد

---

(١) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ص١٥٢.
(٢) الجذور التاريخية للشعوبية، ص١٥ (بتصرف).

عيون العرب، وبعد عمر بن عبدالعزيز رجع الخلفاء إلى السياسة التي نقضها، وقد فعلوا ذلك إرضاء للنعرة العربية السائدة. هذا بالإضافة إلى أن الموالِيَ لم يُسمح لهم بسكنى الأمصار، بل كانوا يُدْفَعُون إلى القرى لكي لا تتأثر حصيلة الخراج التي تكون الجزء الرئيسي في ميزانية الدولة(١).

فقد روي أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث، وعبدالله بن الجارود، ولقي ما لقي من قراء أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه، وخرج عليه، الفقهاء، والمقاتلة، والموالي من أهل البصرة، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم، أحب أن يسقط ديوانهم، ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا، ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي، وقال: أنتم علوج وعجم، وقُراكم أولى بكم، ففرقهم، وفض جمعهم كيف أحب، وصيَّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجَّهه إليها(٢).

ومما يروي أيضًا أن أشرس بن عبدالله السلمي دعا أهل الذمة من أهل سمرقند، ومن وراء النهر إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجزية، فأجابوه إلى ذلك، فلما أسلموا، وضع عليهم الجزية وطالبهم بها، فنصبوا له الحرب(٣).

ولكن رد البعض على هذا السبب أيضًا، بأن فرض الجزية على الموالي، كان نتيجة الأزمة المالية في أواسط العصر الأموي، ويوضح هذا فرض الخراج على العرب أنفسهم، وكلا التدبيرين مخالف للعرف الإسلامي في حينه، ولذا نقضت هذه التدابير، ولم تتخذ قاعدة، كما أن الأمويين لم يتجاوزوا الضرائب المعروفة

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص٧٠؛ والمقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، ص١٨٥، ١٨٦ (بتصرف).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د/ عبدالمجيد الترحيني، ج٣، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص٣٦٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٥٤.

الموروثة، كهدايا النيروز، والمهرجان، والضرائب على الصناعات والحرف، وهي ضرائب مألوفة من قبل.

أما عن العطاء، فقيل أنه قد شمل بعض الموالي في صدر الإسلام، وذلك عند قلتهم وحاجة العرب إليهم في الفتوح، ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة إلى البلاد الجديدة، وانتظام الجميع في الجيش لم يدع مجالاً أو ضرورة للموالي ضمن صفوفه، فاقتصر العطاء على العرب، ولقد شاركت جماعات من الموالي في غزوات على الحدود الشرقية، ولكنها كانت من القوات المتطوعة، ولذا كانت تشارك في الغنائم فقط؛ لأنها لم تستند إلى سجل ثابت، أو أساس دائم(١).

السبب الرابع:

أن الخلفاء العباسيين لم يشغلهم الصراع المعنوي إلا بمقدار ما كان يظهر منه من خطر على العقيدة الإسلامية، كما صنع المهدي بالزنادقة، إذ تعقبهم وقتل كثيرًا منهم، ومعظمهم كانوا من ذوي النزعة الشعوبية المتطرفة، ويبدو أن معركة هؤلاء الشعوبية كانت من نوع مختلف تمامًا عن المعارك التي وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى خوضها بضراوة وعنف، فقد كان تنبههم شديدًا إلى كل الحركات الثائرة التي تعلن العصيان والتمرد على الدولة، وهي بطبيعتها حركات ظاهرة، لها قيادتها المعلنة، ولها أنصارها، ولها تمركزها في نطاق محدود، أو منطقة بعينها من الدولة، ومن أجل هذا كان من السهل على العباسيين، حين كانت الدولة ما تزال في صدر حياتها فتية وقوية، أن يجردوا الجيوش ويقضوا على هذه الحركات وعلى زعمائها، أما بالنسبة للشعوبية فكان الأمر مختلفًا، إذ لم تكن الشعوبية حركة محدودة البيئة، أو محدودة في منطقة بعينها، ولم تشكل ــ في ظاهر الأمر ــ خطرًا مباشرًا يهدد خلافة العباسيين، هذا فضلاً عن أن الشعوبيين لم يكونوا على درجة

(١) الجذور التاريخية للشعوبية، ص١٥، ١٦.

واحدة في عصبيتهم، فقد كان منهم من يقولون بالمبدأ الإسلامي في التسوية بين البشر كافة أمام الله عز وجل، وهم بعد هذا لم يشهروا سلاحًا، أو يعلنوا عصيانًا، أو تمردًا، فهذا كله جعل الخلفاء العباسيين لا يكترثون كثيرًا بذلك الجدل بين العرب والشعوبية بما يقوله هؤلاء، وبما يرد به هؤلاء، سواء في الشعر أو في الكتب المصنفة(١).

السبب الخامس:

تعصب الخلفاء العباسيين للإسلام، وعدم تعصبهم للعربية، فحاربوا الزندقة، ولم يحاربوا النزعة العجمية، وذلك طبيعي؛ لأن أكثرهم مولدون، ولقي العرب من العجم عنتًا شديدًا، فالوزراء أكثرهم عجم، والدسائس تدس في القصور لإضعاف شأن العرب، وإذا ثار العرب في جزيرتهم، أو في الأطراف نكل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل، وفي أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية، ولم يكن شعور الترك الذين جلبهم المعتصم بأحسن حالاً من شعور الفرس، وكثُر الشعر من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخرون بنسبهم ويعتزون بقومهم(٢).

السبب السادس:

اتساع نفوذ الفرس في الدولة، وتسنمهم المناصب القيادية فيها، وتوليهم الوزارة واحدًا بعد الآخر، فقد ساعد ذلك الشعوبية على كشف النقاب عن وجهها، وعلى التمادي والغلو في حربها للفكرة العربية، وذلك أن هؤلاء الشعوبيين كانوا يجدون

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص١٢١، ١٢٢ (بتصرف).
(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين، ص٨١ (بتصرف).

المساندة، بل والتشجيع من أولئك الذين اعتلوا منهم المناصب، فقد روي أن سهل بن هارون قد عمل رسالته في البخل للحسن بن سهل، وهي الرسالة التي نال فيها من الكرم العربي، وقد راح فيها يرغب الحسن بن سهل في البخل، فأجابه الحسن على ظهر رسالته "وصلت رسالتك، ووقفنا على نصيحتك، قد جعلنا المكافأة عنها القبول منك، والتصديق لك، والسلام". كما كان علان الشعوبي منقطعًا للبرامكة، وكان ذلك يضمن له نوعًا من الاطمئنان والحماية، وقد أجازه طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون، وقاتل الأمين، ومؤسس الدولة الطاهرية بثلاثين ألف درهم عن كتابه الذي صنفه في مثالب العرب، فهذا يدل دلالة قاطعة على سيطرة الموالي من الفرس على الدولة العباسية، وبالتالي فتح الباب للشعوبية لتفعل ما تشاء[١].

السبب السابع:

تكاتف الشعوبيين في العصر العباسي، وسعاية كل منهم في صالح الآخر، وتعاونهم على إقصاء أي نفوذ معنوي للفكرة العربية عمن يُرى فيه ميل إليها من الخلفاء، فنرى الشعوبيين يناصرون أبا عبيدة، وحين رأوا الأصمعي ــ وهو نصير الفكرة العربية ــ يحتل مكانه لدى هارون الرشيد سعوا في إقصائه عن طريق القدح فيه لدى الرشيد، وظلوا يلحون في ذلك حتى أسقطوه عنده، في الوقت الذي كانوا فيه يكيلون الثناء لأبي عبيدة، ويبالغون فيه، حتى أنفذ الرشيد إليه من أقدمه[٢].

السبب الثامن:

"أن الشعوبيين بصفة عامة، وبخاصة المتطرفين منهم، لم يكن الإسلام قد تغلغل في نفوسهم، ولم يَعْدُ أن يكون قشرة مظهرية يحجبون خلفها نزعاتهم وعقائدهم الدينية

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص١٢٢، ١٢٣ (بتصرف).
(٢) المرجع السابق، ص١٢٣ (بتصرف).

القديمة"[١]. حيث إن الشعوبيين كان منهم متطرفون قدَّموا الشعوب الأجنبية على العرب، وتنقصوا قدر العرب، وصغروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة، فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوضوا دولهم، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة، وأشد من كل هؤلاء حنقًا وغيظًا الملاحدة والزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف، وكل ما اتصل به من عرب وعروبة[٢].

وقد قال الجاحظ في هؤلاء: "وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية، والتمادي فيه، وطول الجدل المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذا كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف والقدوة"[٣].

---

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، ص١٢٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي ــ العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة عشر، (بدون تاريخ)، ص٥٧ (بتصرف).

(٣) الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ج٧، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ ــ١٩٦٨م، ص٢٢٠.

الفصل الثاني

المطاعن التي وجهتها الشعوبية إلى العرب والرد عليها

ويشمل ثمانية مباحث:

المبحث الأول ـ الطعن في اللغة العربية وبلاغتها وقوة الخطابة بها

المبحث الثاني ـ الطعن على العرب في استعمالهم للعصا عند الخطابة

المبحث الثالث ـ الطعن على العرب في أساليب قتالهم ومعداتهم الحربية

المبحث الرابع ـ الطعن على العرب في حضارتهم وثقافتهم
المبحث الخامس ـ الطعن على العرب في الكرم الذي اشتهروا به
المبحث السادس ـ الطعن على العرب من خلال المرأة
المبحث السابع ـ الطعن على العرب في أنسابهم
المبحث الثامن ـ الطعن على العرب من خلال الشعر

المبحث الأول

الطعن في اللغة العربية وبلاغتها وقوة الخطابة بها

قد أشار الجاحظ إلى طعن الشعوبية في اللغة العربية بقوله: "وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية، والتمادي فيه، وطول الجدال المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن

أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف والقدوة"(١).

فهنا أشار الجاحظ إلى بُغض الشعوبية للغة العربية، وبالتالي انتقلت البغضاء إلى أهل هذه اللغة، ثم إلى الإسلام.

كما أشار الجاحظ إلى طعن الشعوبية في الخطابة العربية، وبلاغتها وقوتها بقوله: "قالوا: والخطابة شيءٌ في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج مع الغثارة(*)، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد، وغلظ الحس، وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل، وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس، وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلامًا، وأسهلهم مخرجًا، وأحسنهم دلاً، وأشهدهم فيه تحكمًا، أهل مرو"(٢).

"وقالوا: ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كاروند، ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمَثُلات(*)، والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة، فلينظر في سير الملوك، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها، وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها، وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء، بها تعرف السقم من الصحة، والخطأ من الثواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها، وسيرها

---

(١) الحيوان، ج٧، ص٢٢٠.

(*) **(الغثارة):** الغَيْثَرة هم سفلة الناس. (ينظر: مختار الصحاح، مادة غ ث ر، ص٤٦٩).

(٢) البيان والتبيين، ج٣، ص١٢، ١٣.

(*) **(المَثْلات)** أمثلة جعله مثله يقال أمثل السلطان فلانًا إذا قتله قودًا (مختار الصحاح، مادة م ث ل، ص٦١٥).

وعللها، فمن قرأ هذه الكتب، وعرف غور تلك العقول، وغرائب تلك الحِكَم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة، ... ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، وغَلُظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصُّمَّان"(١).

فهنا يذكر الجاحظ ما قالت به الشعوبية من تطاول على العرب ولغتهم، فهم في رأيهم ليسوا أهل فصاحة وبيان، إنما الفصاحة والبيان، وقوة الخطابة لدى الشعوب الأخرى، وأولها الفرس، أما العرب فكلامهم يتسم بالجفاء، وأصواتهم بالغلظة، وذلك لاعتيادهم مخاطبة الإبل.

وقد أشار الألوسي إلى طعن الشعوبية في لغة العرب بقوله: "وقد سمعت بعض من لا خلاق له من الناس أنه أدعى أن لغات الإفرنج اليوم أوسع من لغة العرب، بناءً على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعانٍ لم تكن في القرون الخالية، والأزمنة الماضية، فضلاً عن أن تعرفه العرب فتفوه به، أو تتخيله فتنطق به"(٢).

الرد على هذا الطعن:

"أدرك المثقفون العرب أهمية اللغة العربية في فهم الإسلام، وفي توحيد العرب، وقيام دولتهم وازدهار حضارتهم، فلما اختلط الأعاجم بالعرب وانتشر اللحن، قامت حركة تدعو لتعلم العربية الفصحى"(٣)، فنجد ابن خلدون يقول في مقدمته: "إعلم أن

---

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص١٤.

(٢) بلوغ الأَرب في معرفة أحوال العرب، تأليف: السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، شرح محمد بهجة الأثري، الجزء الأول، ط دار الكتاب المصري، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) ص٤٤.

(٣) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، د/ عبدالله سلوم السامرائي، ط دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٨٠م، ص١٨١.

اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إنابة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول، ... وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب، أما غيرها من اللغات، فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم من مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب، ... فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، ... وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو، وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال بإشارة علي ﷺ ؛ لأنه رأى تغيير الملكة، فأشار عليه بحفظها، ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، وكان الناس أحوج ما كانوا إليها لذهاب الملكة من العرب، فهذب الصناعة وكمل أبوابها، وأخذها عنه سيبويه، فكمل تفاريعها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إمامًا لكل ما كُتب فيها من بعده"(١).

فهنا أشار ابن خلدون إلى أن اللغة العربية أفصح اللغات وأوضحها على الإطلاق، والخوف عليها من الفساد بعد الاختلاط بالأعاجم جعل أهل العلم يسنون القواعد لحفظها، وقد أُلّف في هذه القواعد الكثير من العلماء إلى يومنا هذا.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، تأليف عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق: الأستاذ خليل شحادة، مراجعة: د/ سهيل زكار، الجزء الأول، ط دار الفكر، بيروت ــ لبنان، ١٤٢١هـ ــ٢٠٠١م، ص٧٥٣، ٧٥٤.

كما دافع عن اللغة العربية ودعا إلى الحفاظ عليها ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء، حيث ذكر فيه فصلاً بعنوان (في فضل الأدب وأهله، وذم الجهل وَحَمْلِه)، وقد تحدث فيه عن أهمية اللغة العربية، والعمل على عدم اللحن فيها، حماية للدين الإسلامي، وذلك من خلال ذكره للعديد من القصص والمواقف التي تدل على أن اللحن في اللغة ذنب يستوجب الاستغفار، فكان مما ذكره: أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ مرَّ على قوم يسيئون الرمي فقرَّعهم، فقالوا: إنا قوم متعلمين، فأعرض مغضبًا، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشد على من خطئكم في رميكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (رحم الله أمرءًا أصلح من لسانه)(*).

واستأذن رجل على إبراهيم النخعي فقال: أبا عمران في الدار؟ فلم يجبه، فقال: أبي عمران في الدار؟ فناداه: قل الثالثة، وادخل.

وكان الحسن بن أبي الحسن يعثر لسانه بشيءٍ من اللحن، فيقول: استغفر الله، فقيل له فيه، فقال: من أخطأ فيها فقد كذب على العرب، ومن كذب فقد عمل سوءًا، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رحيمًا**﴾(١).

وقال الزهري: ما أحدث الناس مروءةً أحب إليَّ من تعلم النحو، وقال شاعر يصف النحو:

اقتبس النحوَ ونعم المقتبسْ ... والنحوُ زينٌ وجمالٌ مُلْتَمَسْ
صاحبُه مُكرَّمٌ حيثُ جَلَس ... من فاته فقد تعمَّى وانتكس
كأنما فيه من العيّ خَرَسْ ... شتّان ما بين الحمار والفرس

(*) ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، ط المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م، ص٤٥٦، حديث رقم ٣١٠٣.
(١) سورة النساء: الآية (١١٠).

وعن سعيد بن سلم قال: "دخلتُ على الرشيد فبهرني هيبةً وجمالاً، فلما لحن خفَّ في عيني".

وعن الشعبي، قال: "حلى الرجال العربية، وحلى النساء الشحم".

وقال رجل للحسن: يا ابا سعيد ما تقول في رجل مات وترك أبيه وأخيه؟ فقال له الحسن: ترك أباه وأخاه، فقال له: فما لأباه وأخاه، فقال له الحسن: إنما هو فما لأبيه وأخيه، فقال الرجل للحسن: يا أبا سعيد ما أشدَّ خلافك عليَّ، فقال له الحسن: أنت أشدُّ خلافًا عليَّ، أدعوك إلى الصواب، وتدعوني إلى الخطأ"(١).

وقد رد على طعن الشعوبية في العرب والعربية أبو حيان التوحيدي، فقد ذكر مميزات العرب والعربية بالقياس إلى الشعوب واللغات الأخرى، فقال: "... وهذا شيء فاشٍ في العرب، لطول وحدتها، وصفاء فكرتها، وجودة بنيتها، واعتدال هيئتها، وصحة فطرتها، وخلاء ذرعها، واتقاد طبعها، وسعة لغتها، وتصاريف كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجولانها في اشتقاقاتها، ومآخذها البديعية في استعارتها، وغرائب تصرّفها في اختصاراتها، ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها، وفنون تبحبحها في أكناف مقصادها، وعجيب مقاربتها في حركات لفظها، وهذا وأضعافه مسلَّم لهم، وموفَّر عليهم، ومعروف فيهم، ومنسوب إليهم، مع الشجاعة والنجدة والذمام والضيافة والفطنة والخطابة والحمية والأنفة والحفاظ والوفاء، والبذل والسخاء، والتهالك في حب الثناء، والنَّكَل الشديد عن الذم والهجاء، إلى غير ذلك مما خُصّت به في جاهليتها قبل الإسلام، مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده، والبُهت فيه، والمكابرة عليه.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء، تحقيق: د/ إحسان عباس، ج١، ص١٦ــ٢٧.

وقد سمعنا لغات كثيرة ــ وإن لم نستوعبها ــ من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم، وصقلاب وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعني الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها، والمساواة التي لا تُجحَد في أبنيتها.

وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابسًا وتداخلاً، وترادفًا وتعاظُلا، وتعسُّرًا وتعوُّصًا، وإلى ما بعدها ممَّا هو أسلس حرفًا، وأرقُّ لفظًا، وأخف اسمًا، وألطف أوزانًا، وأحضر عيانًا، وأحلى مخرجًا، وأجلى منهجًا، وأعلى مدرجًا، وأعدل عدلاً، وأوضح فضلاً، وأصح وصلاً إلى أن تنزل على لغة بعد لغة، ثم تنتهي إلى العربية، فإنك تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض"[١].

فهنا فضل أبو حيان التوحيدي العرب على غيرهم من الشعوب الأخرى مستدلاً على تفضيلهم بالصفات المميزة لهم، كما فضل أيضًا اللغة العربية على غيرها من اللغات بذكره لمميزاتها التي لم توجد في اللغات الأخرى.

وممن ردوا على طعن الشعوبية في العرب والعربية الألوسي، حيث قال: "ولما كانت العرب في قوة الفهم، وحدة الذهن، إلى غاية الغايات، كان معجزهم القرآن، فإن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، والعرب أصح الناس أفهامًا، وأحدهم أذهانًا، وقد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها، فخُصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، تأليف: أبي حيان التوحيدي، شرح: أحمد أمين، وأحمد الزين، الجزء الأول، ط دار مكتبة الحياة، (بدون تاريخ)، ص٧٦ــ٧٨.

وتصل إليه أذهانُهم فيُدْركونه بالفطنة دون البديهة، وبالروية دون البادرة، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها، ويوافق فهمها"(١).

فهنا يرد الألوسي على طعن الشعوبية في بلاغة العرب، وفصاحتها، حين يربط بين هذه الفصاحة والبلاغة العربية، ومعجزة القرآن الكريم، فيرى أن القرآن معجزهم لما هم فيه من الذكاء والفطنة، وقوة البلاغة، والفصاحة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يخاطب الناس على قدر عقولهم، ولما في عقول العرب من قوة وبلاغة تحداهم رب العزة بما هو معجز لهم.

وقد رد الألوسي على طعن الشعوبية في العربية حين قالوا أن لغات الإفرنج أوسع من لغة العرب، فقال: "إن هذا الكلام يُشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة، وأنه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أين حصلت. فيتهم مفردات العربية بأنها غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع، فيرى الألوسي أن هذا الأمر غير شين على العربية، إذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة، وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية، مع قدرتنا على صوغها من لغتنا، على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة، وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي. فما الحاجة في أن نقول: فبريقة أو كَرْخانة، ولا نقول: معمل أو مصنع، أو أن نقول: بيمارستان، ولا نقول: مستشفى، أو نقول: ديوان، ولا نقول: مَأْمَر، أو نقول: إسطرلاب، ولا نقول: مِنْظَر، والعرب اليوم بخسوا اللغة حقها، فإنهم عدلوا عنها إلى اللغات العجمية، من غير سبب موجب، فإن من يستعير ثوبًا من آخر، وهو مستغن عنه يُحكم عليه بالزيغ والبطر"(٢).

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص٣٧، ٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤، ٤٥.

وحين طعنت الشعوبية في البلاغة العربية، وقوة الخطابة بها، وقالوا أن غير العرب أقدر على البيان منهم، اضطلع بالرد عليهم وإفحامهم وتفنيد دعواهم الجاحظ، والألوسي. فقال الجاحظ في هذا الشأن: "أنَّا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، فأما الهند فإنما لهم معانٍ مدونةٍ، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه، وهم يزعمون أنّ جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكرة عند آخرهم، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهْمَه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهْمَه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يَدْرُسه أحدًا من ولده.

وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه في البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارُس.

وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب.

ونحن إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير، والنبذ القليل.

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع، وسهل بن هارون، وأبي عبيد الله، وعبد الحميد، وغيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير.

وأخرى: أنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفْلِق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلتَ هو الحق، وأبصر الشاهد عِياناً، فهذا فرق ما بيننا وبينهم"(١).

فهنا يشير الجاحظ إلى الفارق بين خطب العرب، والفرس، فخطب الفرس فيها مشاورة ومعاونة، والأخذ عن السابق، أما خطب العرب فهي عن طريق البديهة والارتجال، فهي إلهام، ليس فيها معاناة، فهم مطبوعون لا يتكلفون، وغيرهم من الشعوب الأخرى متكلفين غير مطبوعين.

---

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص٢٧ــ٢٩.

ورد الألوسي عليهم ذاكرًا الأدلة على أن العرب أقدر على البيان من غيرهم، فقال: "فلأن لسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني جمعًا وفرقًا يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل إذا شاء المتكلم الجمع، ثم يميز بين كل شيئين بلفظ آخر مميز مختصر"(١).

كما دلل أيضًا على قدرتهم على البيان بقوله: "ولذلك كثر فيهم الخطب والخطباء، حتى كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب، كما كان لكل قبيلة شاعر، ولهم خطب يضيق عنها نطاق الحصر، وكان للعرب اعتناء بالخطب في جاهليتهم أكثر من اعتنائها بها في إسلامهم، وكانت لهم فيها عوائد غريبة، وشئون عجيبة، فمن عوائدهم أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعاني، وينتخبون لها أحسن الألفاظ تحصيلاً لغرضهم، ونيلاً لمقصدهم، فإن الألفاظ الرائقة والمعاني الجزلة، أوقع في النفوس، وأشد تأثيرًا في القلوب، وأيقظ للهمم"(٢).

ومن الأدلة أيضًا قوله: "وأما خطب أهل الصدر الأول من الإسلام فهي الغاية في الفصاحة، والمنتهى في البراعة والبلاغة. وفي كتب الأدب الدائرة في الأيدي شيء كثير من خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم، مما تتحير منه أولو الألباب، وتقضي منه العجب العجاب، وكذلك أهل القرن الثاني، فليسوا بأقل فصاحة من العرب العرباء، ولا من أولئك الخطباء"(٣).

فمن خلال هذه الردود على هذا الطعن نستطيع أن نقف على قدرة العلماء والأدباء العرب في الرد على هؤلاء الشعوبية وأفحامهم، وتفنيد أقوالهم، فهم يتهمون العرب والعربية اتهامات باطلة لا أساس لها، بل هي من منطلق كرههم للعرب، وحقدهم

---

(١) بلوغ الأرب، ج١، ص٤٠.
(٢) المرجع السابق، ج٣، ص١٥١، ١٥٢.
(٣) بلوغ الأرب، ج٣، ص١٧٩، ١٨٠.

الدفين عليهم منذ أن فتح العرب بلادهم ونشروا فيها الإسلام، فهم كما قال عنهم الجاحظ هم كرهوا العرب، وبالتالي كرهوا اللغة، ثم انتقلت الكراهة إلى الإسلام.

المبحث الثاني

الطعن على العرب في استعمالهم للعصا عند الخطابة

يقول الجاحظ على لسانهم في هذا الطعن: "قالت الشعوبية، ومن يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للبَقّار، والعصا للقتال، والقوس للرمي، وليس بين الكلام، وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر، ويعترضا على الذهن أشبه، وليس في حملهما ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ.

وقد زعم أصحاب الفناء أن المغني إذا ضُرب على غنائه، قصر عن المغّني الذي لا يُضرب على غنائه، وحمل العصا بأخلاق الفدّادين(*) أشبه، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل، وبه أشبه"(١).

ويقول أيضًا على لسانهم في هذا الطعن: "فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني، وتخير الألفاظ، وتمييز الأمور، أن يشيروا بالقنا والعصى، والقضبان والقسى، كلا، ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب، وإنما كان جل قتالكم بالعصى"(٢).

فهنا تُعيب الشعوبية على العرب في حملهم للعصا عند الخطابة متعللين بأنه لا توجد مناسبة بين الكلام، وحمل العصا، فهي تشغل الذهن وتصرفه عن الكلام، ويقولون

(*) **الفدادين:** الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم. (مختار الصحاح، مادة ف د د، ص٤٩٤).

(١) البيان والتبيين، ج٣، ص١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

أن حمل العرب لها عند الخطابة لتعودهم على حملها فهي تناسب أخلاقهم من الجفاء وعلو الصوت، كما تناسب حياتهم لرعي الإبل والغنم.

الرد على هذا الطعن:

وقد اضطلع بالرد على هذا الطعن وتكذيب دعاوي الشعوبية الجاحظ، فقال: والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، وهو من المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان ابن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة، وقال الله عز وجل وقوله الحق: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾[1]، والمنسأة هي العصا.

قال أبو عثمان: وإنما بدأنا بذكر سليمان عليه السلام؛ لأنه من أبناء العجم، والشعوبية إليهم أميل، وعلى فضائلهم أحرص، ولِما أعطاهم الله أكثر وصفًا وذكرًا.

وقد جمع الله لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه من البرهانات العظام، والعلامات الجسام، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين، وجماعة من النبيين، قال الله تبارك وتعالى فيما يذكر من عصاه: ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ***

---

(1) سورة سبأ: الآية (١٤).

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾(١).

ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليظ الناس والتمويه عليهم إلا بالعصى، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه.

وقال الله عز وجل: ﴿**قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾(٢)، ألا ترى أنهم لما سحروا أعين الناس واسترهبوهم بالعصى والحبال، لم يجعل الله للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا، وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا(٣).

"ومما يدخل في باب الانتفاع بالعصا أن عامر بن الظرب العدواني، حكم العرب في الجاهلية، لما أسنّ واعتراه النِّسيان، أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فَـهَّ(*) عن الحكم، وجار عن القصد، وكانت من حكيمات بناتِ العرب"(٤).

وذكر العصا يجري عند العرب في معان كثيرة، يقال: "فلان شق عصا المسلمين"، ولا يقال شق ثوبًا ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق(٥).

وسُئل يونس بن حبيب عن قول موسى عليه السلام ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾(١)، قال: لست أحيط بجميع مآرب موسى عليه السلام، ولكني سأنبئكم جملاً تدخل في

---

(١) سورة طه: الآيات (٦٣ــ٦٩).
(٢) سورة الأعراف: الآيات (١١٥ــ١١٨).
(٣) ينظر البيان والتبيين، ج٣، ص٣٠ــ٣٢.
(*) **فَهَّ:** الفَهَّةُ السقطة والجهلة ونحوها. (مختار الصحاح، مادة ف هـ هـ ، ص٥١٣).
(٤) البيان والتبيين، ج٣، ص٣٨.
(٥) المرجع السابق، ص٣٩.

باب الحاجة إلى العصا، من ذلك أنها تُحمل للحية، والعقرب، وللذّئب، وللفحل الهائج. ويتوكأ عليها الكبير الدالف، والسقيم المدنف، والأقطع الرجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى.

والعصا تنوب للأعمى عن قائده، وهي تعدل من ميل المفلوج(*)، وتقيم من ارتعاش المبرسم(**)، ويتخذها الراعي لغنمه، وكل راكب لمركبه(٢).

"والعصا تكون سوطًا وسلاحًا، وكان رسول الله ﷺ يخطب بالقضيب، وكفى بذلك دليلاً على عظَم غَنائها، وشرف حالها، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء العرب من الخطباء"(٣).

قالوا: ولما شاع هجاء (الحكم بن عبدلٍ الأسدي) (٤) (لمحمد بن حسان بن سعد)(٥)، وغيره من الولاة والوجوه، هابه أهل الكوفة، واتقى لسانه الكبير والصغير، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه، فترك الوقوف بأبوابهم، وصار يكتب على عصاه حاجته، ويبعث بها مع رسوله فلا يُحبَس له رسول، ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر، وأوفر مما آمل، فقال يحيى بن نوفل:

عصا حَكَم في الدّار أَوّلُ داخلٍ ونحن عن الأبواب نُقصَي ونُحْجَبُ

---

(١) سورة طه: من الآية (١٨).

(*) **المفلوج:** الفالج: شلل يصيب أحد شقي الجسم طولاً. (المعجم الوجيز، مادة ف ل ج، ص٤٧٩).

(**) **المبرسم:** البرسام: هو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة.(المعجم الوجيز، مادة ب ر س، ص٤٥).

(٢) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص٦٧، ٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص٦٩.

(٤) هو: **الحكم بن عبدل بن جبلة**، ينتهي نسبه إلى أسد بن خزيمة، وكان هجاء خبيث اللسان، من شعراء الدولة الأموية، ومنزله ومنشؤه الكوفة. (ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص٧٤ الهامش)؛ والأغاني، ج٢، ص٢٦٥.

(٥) هو: **محمد بن حسان بن سعد التميمي**، كان على خراج الكوفة. (ينظر: البيان والتبيين للجاحظ، ج١، ط مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م، ص٨٨ الهامش.

وكانت عصا موسى لفرعون آية وهذي لعمـــر الله أدهـــى وأعجـــبُ
تُطاعُ فلا تُعصى ويُحْذَرُ سُخْطُها ويُرغَبُ في المَرْضاة منها وتُرْهَبُ[١]

ويقولون: اعتصى بالسيف، إذ جعل السيف عصاه، وإنما اشتقوا للسيف اسمًا مـــن العصا؛ لأن عامة المواضع التي تصلحُ فيها السيوف تصلحُ فيها العصىّ، وليس كل مواضع تصلحُ فيها العصا يصلح فيها السيف[٢].

ويقول الجاحظ أيضًا في الرد على هؤلاء الشعوبية: "ونحن لو تركنـــا الاحتجـــاج لمخاصر البلغاء، وعِصىّ الخطباء، لم نجد بُدًّا من الاحتجاج لِجلَّة المرسَلين، وكبار النبيين؛ لأن الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المـــذهب علـــى قضـــيب النبـــي ﷺ وعَنَزَته، وعلى عصاه ومِخْصَرَته، وعلى عصا موسى؛ لأن موسى عليه السلام قد كان اتخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها، والإم يكون صيور أمرها، ألا ترى أنه لما قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـــا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**﴾[٣]، ومن يستطيع أن يدعي الإحاطة بما فيها من مآرب موسى إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال؟!، وقد كانت العصا لا تفارق يد سليمان بن داود عليه السلام في مقاماته وصلواته، ولا في موته، ولا في أيام حياته، حتى جعل الله تسليط الأرضة عليها وسليمان ميت وهو معتمد عليها، من الآيات عند من كـــان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس.

ولم علم القوم أخلاق كل ملة، وزي أهل كل لغة وعللهم في ذلك، واحتجاجهم لـــه، لقل شغبهم، وكفونا مئونتهم. هذه الرهبان تتخذ العصى، من غير سقم ولا نقصـــان

---

(١) الأغاني، ج٢، ص٢٦٥.
(٢) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص٧٤ــ٧٧.
(٣) سورة طه: الآيات (١٧ــ٢٠).

في جارحة، ولابد للجاثليق من قناع ومن مِظِلَّة وبرطلة(*)، ومن عكاز ومن عصا، من غير أن يكون الداعي إلى ذلك كِبَرًا ولا عجزًا في الخلقة.

وما زال المطيل القيام بالموعظة أو القراءة أو التلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، ويتوكأ عليها عند المشي، كأن ذلك زائدٌ في التكهل والزَّماتة(*)، وفي نفي السخف والخفة. وبالناس أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما، ولكل صنف حلية وسمة يتعارفون بها"(١).

وقال الجاحظ أيضًا في الرد على هؤلاء الشعوبية: "قال ابن عباس رحمه الله في تعظيم شأن عصا موسى عليه السلام: "الدّابَّةُ(**) ينشق عنها الصفا معها عصا موسى، وخاتم سليمان، تمسح المؤمن بالعصا، وتختم الكافر بالخاتم". وجعل الله تبارك وتعالى أكبر آداب النبي ﷺ في السِّواك، وحض عليه ﷺ ، والمسواك لا يكون إلا عصا"(٢).

كما قال الجاحظ لإبطال طعن الشعوبية على العرب في استعمال العصا عند الخطابة: ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، فإذا أشاروا بالعصيِّ فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيديًا أُخَر.

(*) **برطلة:** البرطل القلنسوة، وقيل المظلة الصيفية. (المعجم الوجيز، مادة ب ر ط ل، ص٤٥).
(*) **الزَّماتة:** الزميت الحليم الساكن القليل الكلام. (لسان العرب، ج٣، مادة ز م ت، ص١٨٥٩).
(١) البيان والتبيين، ج٣، ص٨٩، ٩٠.
(**) هي الدابة الواردة في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ**﴾ [سورة النمل: الآية (٨٢)]. وانظر أيضًا: البيان والتبيين، ج٣، ص١١٣ الهامش.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

وأيضًا إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوبٌ إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم، ألفًا لها، وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها. وإنما يكون العجز والذلة في دخول الخلل والنقص على الجوارح، وأما الزيادة فيها فالصواب فيه(١).

وقد رد الجاحظ على زعمهم حين استدلوا بأن المُغَنيّ إذا ضُرب على غنائه، قصر عن المغّني الذي لا يُضرب على غنائه، فقال: "والمغني قد يوقِّع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني، ولو قُبضت يده ومُنعَ حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه. وقال عبدالملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي"(٢).

فهنا رد الجاحظ على هؤلاء الشعوبية ردًا مفحمًا حين وضح فضل العصا وشرفها، وأن العرب في اتخاذهم لها إنما كان تقليدًا للأنبياء والمرسلين، وكان أول من استدل به من الأنبياء سيدنا سليمان؛ لأنه من أبناء العجم، حتى يكون دليلاً على كذب آرائهم وأقوالهم، كما استخدمها سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا محمد ﷺ ، مما يدل على فضل العصا وشرفها.

وقد أشار الجاحظ إلى أن هناك أقوامٌ آخرين غير العرب تتخذ العصا، فَلِمَ تحتج الشعوبية على العرب دون هؤلاء؟ فهذا يدل على كره هؤلاء للعرب، ومحاولة النيل منهم، ومن عاداتهم وتقاليدهم. كما أشار الجاحظ إلى الاستعمالات المتعددة للعصا مما يدل على أهميتها والحاجة إليها.

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص١١٦، ١١٧.
(٢) البيان والتبيين، ج٣، ص١١٩.

وإذا كانت العصا هي حلية وسمة للعرب يتعارفون بها، فما الذي يضير الشعوبية في هذا؛ إنه الحقد الدفين، والكره للعرب الذي جعلهم يحولون عاداتهم وتقاليدهم إلى نقائص يمكن النيل منهم من خلالها.

المبحث الثالث

الطعن على العرب في أساليب قتالهم ومعداتهم الحربية

وقد فصل الجاحظ هذا الطعن بقوله على لسانهم: قالوا: وإنما كانت رماحكم من مُرّان[١]، وأسنتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء[٢]. فإن كان الفرس ذا سرح فسرجه رحالة من أدمٍ، ولم يكن ذا ركاب، والركاب[٣] من أجود آلات الطاعن برمحه، والضارب بسيفه، وربما قام فيهما أو اعتمد عليهما. وكان فارسهم يطعن بالقناة الصماء، وقد علمنا أن الجوفاء أخف محملاً، وأشد طعنةً، ويفخرون بطول القناة، ولا يعرفون الطعن بالمطارد[٤]، وإنما القنا الطوال للرّجّالة، والقصار للفرسان، والمطارد لصيد الوحش، ويفخرون بطول الرمح، وقِصَر السيف، فلو كان المفتخر بقصر السيف الراجل دون الفارس، لكان الفارس يفخر بطول السيف، وإن كان الطول في الرمح إنما صار صوابًا؛ لأنه ينال به البعيد، ولا يفوته العدو؛ ولأن ذلك يدل على شدة أسر الفارس، وقوة أيده، فكذلك السيف الطويل العريض.

وكنتم تتخذون للقناة زُجّاً وسِنانا حين لم يقبض الفارس منكم على أصل قناته، ويعتمد عند طعنته بفخذه، ويستعن بحمية فرسه، وكان أحدكم يقبض على وسط

---

(١) **مُرّان:** الرماح الصلبة اللدنة، وقيل نبات الرماح. (المعجم الوجيز، مادة م ر ن، ص٥٧٩).
(٢) **أعراء:** جمع عُري بالضم، وفرس عُرْيٌ لا سرج عليه. (المصباح المنير، مادة ع ر ا ه، ص٤٠٦).
(٣) **الركاب:** للسرج، وهو ما توضع فيه الرجل، وهما ركابان. (المعجم الوجيز، مادة ر ك ب، ص٢٧٥).
(٤) **المطارد:** جمع مِطرد وهو الرمح؛ لأنه يطرد به. (المصباح المنير، مادة ط ر د، ص٣٧٠).

القناة، ويخلِّف منها مثل ما قدّم، فإنما طعنكم الرَّزّة[١]، والنَّهزةُ[٢]، والخَلْس والزَّجّ[٣].

(١) **الرَّزّةُ:** رزه رزةً أي طعنه طعنة ثابتة. (لسان العرب، ج٣، مادة ر ز ز، ص١٦٣٦).
(٢) **النَّهزةُ:** النهز الدفع. (المصباح المنير، مادة ن هـ ز، ص٦٢٨).
(٣) **الزَّجّ:** الطعن في عجلة. (لسان العرب، ج٣، مادة ز ج ج، ص١٨١٢).

وكنتم تتساندون في الحرب[١]، وقد أجمعوا على أن الشركة رديّة في ثلاثة أشياء: في الملك، والحرب، والزوجة.

وكنتم لا تقاتلون بالليل، ولا تعرفون البَيَاتَ[٢]، ولا الكمين[٣]، ولا الميمنة، ولا الميسرة، ولا القلب ولا الجناح، ولا الساقة[٤]، ولا الطليعة، ولا النفاضة[٥]، ولا الدراجة[٦]، ولا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة[٧]، ولا العرادة[٨]، ولا المجانيق[٩]، المجانيق[٩]، ولا الدبابات، ولا الخنادق، ولا الحسك[١٠]، ولا تعرفون الأقبية[١١]، ولا ولا السراويلات، ولا

---

(١) **تتساندون في الحرب:** يقال خرج القوم متساندين، أي على رايات شتى، إذا خرج كل بني أب على راية، ولم يجتمعوا على راية واحدة، وأمير واحد. (البيان والتبيين، ج٣، ص١٧ الهامش).
(٢) **البَيَات:** يقال أتاهم الأمر بياتًا: فجأة في جوف الليل. (المعجم الوجيز، مادة ب ا ت، ص٦٨).
(٣) **الكمين:** القوم يكمنون في الحرب ونحوها لمفاجأة العدو. (المعجم الوجيز، مادة ك م ن، ص٥٤٢).
(٤) **الساقة:** ساقة الجيش مؤخره، والساقة جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة، ويكونون من ورائه يحفظونه، ومنه ساقة الحاج. (لسان العرب، ج٣، مادة س و ق، ص٢١٥٤).
(٥) **النفاضة:** قوم يتقدمون أمام الملك ينفضون الطريق وينقونها. (البيان والتبيان، ج٣، ص١٧).
(٦) **الدراجة:** قوم يدرجون أمام الملك. (المرجع السابق، نفس الصفحة).
(٧) **الرتيلة:** أن يقام خلف الصف صف آخر. (البيان والتبيين، ج٣، ص١٧).
(٨) **العرادة:** هي شبه المنجنيق صغيرة. (المرجع السابق، نفس الصفحة).
(٩) **المجانيق:** جمع منجنيق وهي آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة. (المعجم الوجيز، مادة ج ل ق، ص١١٢).
(١٠) **الحسك:** نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم، وأوبار الإبل، ومنه حسك السعدان، يقال كأن جنبه على حسك السعدان: أي قلق متململ، ومن الحديد ما يُعمل على مثال الحسك، كان يُلقى حول العكسر، ويُبَثّ في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها، وهو يشبه ما يُسمى الآن بالأسلاك الشائكة. (المعجم الوجيز، مادة ح س ك، ص١٥١).
(١١) **الأقبية:** جمع قباء وهو ثوب يلبس فوق الثياب أو القيمص ويتمنطق عليه. (المعجم الوجيز، مادة ق ب و، ص٤٨٩).

تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود[١]، ولا التجافيف[٢]، ولا الجواشن[٣]، ولا الخوذ[٤]، ولا السواعد، ولا الأجراس، ولا الوهق[٥]، ولا الرمي بالبنجكان[٦]، والزرق بالنفط والنيران.

وليس لكم في الحرب صاحب عَلَم يرجع إليه المُنْحاز[٧]، ويتذكره المنهزم، وقتالكم إما سلة، وإما مزاحفة[٨]، والمزاحفة على مواعد متقدمة، والسلة مسارقة وفي طريق الاستلاب والخُلسة.

قالوا: والدليل على أنكم لم تكونوا تقاتلون بالليل قول العامري[*]:

---

(١) **البنود:** جمع بند وهو العلم الكبير. (المعجم الوجيز، مادة ب ن د، ص٦٢).
(٢) **التجافيف:** جمع تجفاف، وهو ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقية الجرح وقد يلبسه الإنسان. (لسان العرب، ج١، مادة ج ف ف، ص٦٤٢).
(٣) **الجواشن:** جمع جوشن وهم اسم الحديد الذي يلبس من السلاح، أو على الصدر. (لسان العرب، ج١، مادة ج ش ن، ص٦٢٩).
(٤) **الخوذ:** جمع خوذة وهو غطاء معدني يحمي رأس الجندي. (المعجم الوجيز، مادة خ و ذ، ص٢١٤).
(٥) **الوهق:** حبل يلقى في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق، وأصله للدواب، وفي طرفه أنشوطة. (المصباح المنير، مادة و ه ق، ص٦٧٤).
(٦) **البنجكان:** يقال صكوهم بالبنجكان، أي بخمس نشابات في رمية. (البيان والتبيين، ج٣، ص١٨).
(٧) **المنحاز:** انحاز القوم أي تركو مراكزهم ومعركة قتالهم ومالوا إلى موضع آخر. (المرجع السابق، نفس الصفحة).
(٨) **مزاحفة:** هو مشي الفئتين تلتقيان للقتال، فيمشي كُلٌ مشيًا رويدًا إلى الفئة الأخرى قبل التداني للضراب، وهي مزاحف أهل الحرب. (لسان العرب، ج٣، مادة ز ح ف، ص١٨١٧).
(*) هو: **خِدَاش بن بشير العامري**، ويقال ابن حُصين، بن الأصم بن عامر بن رِواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي القرشي العامري، شاعر جاهلي، قيل شهد حنيناً مع المشركين، ثم أسلم، والبيت قاله في وقعة حنين، أو في حرب الفجار. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، تقديم وتقريظ: أ.د محمد عبدالمنعم البري، د/ عبدالفتاح أبو سنة، د/ جمعة طاهر النجار، ج٢، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ــ١٩٩٥م، ص٢٢٧؛ وينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص١٨، ١٩ الهامش.

يا شَدَّةً ما شددنا غيرَ كاذبــةٍ على سخينة لولا الليل والحَرَمُ

وقول أمية بن الأسكر(*):

ألم تَرَ أن ثعلبــةَ بــن ســعدٍ غضابٌ، حَبَّذَا غَضَبُ الموالي
تركت مصرِّفًا لمــا التقينــا صريعًا تحت أطراف العوالي
ولولا اللّيلُ لم يُفلِتْ ضــرارٌ ولا رأسُ الحمار أبو جُفَالِ(١)

الرد على هذا الطعن:

رد الجاحظ على هذا الطعن بقوله: ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل علــى أن العرب لا تقاتل بالليل، وقد يقاتل بالليل والنهار من تَحُولُ دونَ مالِه المُدُنُ وهــولُ الليل، وربما تحاجز الفريقان، وإن كل واحد منهم يرى البيات، ويرى أن يقاتل إذا بيتوه وهذا كثير. والدليل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل قول سعد بن مالك(٢)، فــي قتل كعب بن مُزَيقيا الملك الغساني:

وليلة ثُبّــع وخمــيسِ كعــبٍ أتونــا، بعــد مــا نِمنــا، دَبيبــا
فلــم نُهــدَدْ لبأْســهمُ ولكــنْ ركبنا حَــدَّ كــوكبهم(٣) رُكوبــا
بضرب يُفلَقُ الهامــاتُ منــه وطعن يفصل الحَلق(٤) الصَّــليبا

وقول أوس بن حجر:

باتوا يُصيبُ القوم ضَيفَا لهــم حتَّى إذا مــا لــيلُهم أظلمــا

(*) هو: **أمية بن حرثان بن الأسكر**، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار، شاعر فــارس مخضــرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم. (الأغاني، ج٢١، ص١١).

(١) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص١٦ــ١٩.

(٢) هو: **سعد بن مالك بن ضبيعة**، أحد شعراء العرب وفرسانهم في الجاهلية، ولاسيما يوم قضة. قضة. (البيان والتبيين، ج٣، ص١٩ الهامش).

(٣) **كوكبهم:** كوكب الجيش معظمه، والكوكبة الجماعة مــن الناس. (المعجم الوجيز، مــادة ك و ك ب، ص٥٤٥).

(٤) **الحلق:** يعني حلق الدرع. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٠ الهامش).

قــرَوْهُمُ شَــهْبَاءَ[١] ملمُومَــةً مثلَ حريقِ النارِ أو أضْــرَما
والله لولا قُــرْزُلٌ[٢] إذْ نَجَــا لكان مثوى خَــدِّكَ الأخْرَمَــا
نجاّك جَيّاشُ[٣] هــزيمٌ كمــا أحمَيْتَ وسط الوبر المِيسَما[٤]

وبعدُ، فهل قتلَ ذُؤابٌ الأسديّ عتبةَ بن الحارث بن شــهاب إلاّ فــي وســط الليــل الأعظم، حين تَبِعوهم فلِحقوهم.

وكانوا إذا أجمعوا للحرب دخّنوا بالنهار، وأوقدوا بالليل، قال عمرو بن كلثوم وذكَرَ وقعةً لهم:

ونحن غَداةَ أُوقِدَ في خَزَازي رَفَدنَا فوقَ رِفدِ الرّافــدينا[٥]

وقال خمخام الدوسي[*]:

وإنّا بالصُّليب[٦] بــبطن فَــجٍّ جميعًا واضعين بــه لَظَانــا
نُــدخِّنُ بالنهــار ليبصِــرونا ولا نَخَفي على أحــدٍ أتانــا

---

(١) **شهباء:** كتيبة شهباء أي كثيرة السلاح. (المعجم الوجيز، مادة ش هـ ب، ص٣٥٢).
(٢) **قُرزُلٌ:** اسم فرس طفيل بن مالك. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٢).
(٣) **الجياش:** المتدفــق في الجــري ومنه جاش الماء تدفق وجرى. (المعجم الوجــيز، مــادة ج ي ش، ص١٢٩).
(٤) ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوســف نجــم، ط دار بيــروت ١٤٠٠هـ ـــ١٩٨٠م، ص١١٣، ١١٤.
(٥) شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات لابن النحاس، ج٢، ط دار الكتــب العلميــة، بيروت ــ لبنان، (بدون تاريخ)، ص١١٣.
(*) **الخمخام:** هو رجل من بني سدوس، كان من الفرسان، وكان ذا بغي وسمي الخمخــام لأنــه كان يتخمخم على الناس في كلامه كأنه مخنون من التيه والكبر، وكان ظلومًا. (البيان والتبيــين، ج٣، ص٢٢).
(٦) **الصُّليب:** جبل عند كاظمة كانت به وقعة بين بكر بن وائل وبني عمرو بــن تمــيم. (البيــان والتبيين، ج٣، ص٢٢).

وأما قولهم: "ولا يعرفون الكمين" فقد قال أبو قيس بن الأسلت:

وأحرزنا المغــانمَ واســتَبَحنا حِمَى الأعــداء واللهُ المعــينُ
بغَير خِلاَبــةٍ وبغيــر مكــرٍ مجاهرةً ولــم يُخْبَــأ كمــينُ

وأما ذكرهم للرُّكُب، فقد أجمعوا على أن الرُّكُب كانت قديمة، إلا أن رُكُبَ الحديد لم تكن في العرب إلا في أيام الأزارقة[١]، وكانت العرب لا تُعَــوّد نفســها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الرُّكُب، وإنما كانت تنزو نزوًا.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ : "لا تخور قوة ما كان صاحبها ينزو وينزع"، يقول: لا تنتكث قوته ما دام ينزع في القوس، وينزو في السرج من غير أن يستعين بركاب.

قال عمر: "الراحة عقلة، وإياكم والسمنة فإنها عقلة"[٢]. ولهذه العلة قُتِل خالــدُ بــن سعيد بن العاص، حين غشيه العدوّ وأراد الركوب ولم يجد من يحمله؛ ولذلك قــال عمر حين رأى المهاجرين والأنصار قد أخصبوا، وهم كثير منهم بمقاربة عــيش العجم: "تمعددوا[٣]، واخشوشنوا، واقطعوا الرُّكُب، وانزوا على الخيل نزوًا"، وقال: "احفوا وانتعلوا، فإنكم لا تدرون متى تكون الجفلة"[٤].

وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل، فكيف تدعُ الركابَ للسَّــرج؟! ولكــنهّم كانوا وإن اتخذوا الرُّكُب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما لابد منه، كراهــة أن يتكلوا على بعض ما يُورثهم الاسترخاء والتفنخ ويضاهئوا أصحاب التُّرفَة والنعمة.

---

(١) **الأزراقة:** جمع أزرقي، نسبة إلى نافع بن الأزرق الحنفي، من بني حنيفــة، أحــد شــجعان الخوارج الذين ظهروا في العصر الأموي، وقد تولى قتالهم المهلب بن أبي صفرة من قِبل عبدالله بن الزبير، وهزمهم عند دولاب الأهواز، ومات نافع في تلــك الهزيمــة ســنة ٦٥هـ. (البيــان والتبيين، ج٣، ص٢٣ الهامش).

(٢) **عقلة:** من قولهم اعتقلت الرجل أي حبسته. (المصباح المنير، مادة ع ق ل، ص٤٢٣).

(٣) **تمعددوا:** (أي تشهبوا بعيش معد بن عدنان، وكانوا أهل قشف وغلظ في المعــاش). (البيــان والتبيين، ج٣، ص٢٤ الهامش).

(٤) **الجفلة:** الانزعاج والشرود والفزع والمضي بســرعة. (المعجــم الــوجيز، مــادة ج ف ل، ص١٠٩).

قال الأصمعي: قال العُمَريّ: كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسري، ثم يجمع جراميزه[١] ويثب، فكأنما خُلِقَ على ظهر فرسه.

وفعل مثل ذلك الوليد بن يزيد بن عبدالملك وهو يومئذ ولي عهد هشام، ثم أقبل على مَسلمةَ بن هشام، فقال له: أبوك يُحسِن مثل هذا؟ فقال مَسلمة: لأبي مائةُ عبدٍ يُحسنون مثل هذا. فقال الناس: لم ينصفْه في الجواب. وزعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية.

وأمّا ما ذكروا من شأن رماح العرب، فليس الأمر في ذلك على ما يتوهَّمون، للرِّماح طبقات: فمنها النيزك[٢]، ومنها المربوع[٣]، ومنها المخموس[٤]، ومنها التام، ومنها الخطل، وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طُوله. فإذا أراد الرجل أن يخبر عن شدة أسر صاحبه ذكره، كما ذكر متمم بن نويرة أخاه مالكًا، فقال: "كان يخرج في الليلة الصِّنَبَّر[٥]، وعليه الشملةُ[٦] الفلوت[٧]، بين المزادتين[٨]، النضوحتين[٩]، على الجمل الثفال[١]، معتقل الرمح الخطل". قالوا له: وأبيك إن هذا هذا لهو الجَلد.

---

(١) **جراميزه:** جراميز الإنسان أطرافه وبدنه، يقال: جمع جراميزه أي تقبَّض ليثب. (المعجم الوجيز، مادة ج ر م ز، ص١٠٢).
(٢) **النيزك:** الرمح القصير. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٤ الهامش).
(٣) **المربوع:** الذي طوله أربعة أذرع. (المرجع السابق، نفس الصفحة).
(٤) **المخموس:** الذي طوله خمسة أذرع. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٤ الهامش).
(٥) **الليلة الصنبر:** الشديدة البرد. (المرجع السابق، ص٢٥ الهامش).
(٦) **الشملة:** كساء يُشتمل به واشتمل بثوبه أي تلفف. (مختار الصحاح، مادة ش م ل، ص٣٤٧). ص٣٤٧).
(٧) **الفلوت:** التي لا ينضم طرفاها لصغرها، أو التي لا تثبت على صاحبها للينها أو خشونتها. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٥ الهامش).
(٨) **المزادتين:** مثنى مزاده وهي آله يستقي فيها الماء.(المصباح المنير، مادة زاد، ص٢٦٠).
(٩) **النضوحتين:** أي تنضح الماء. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٥ الهامش).

ولا يحمل الرمح الخطل منهم إلا الشديد الأَيِّدُ[٢]، والمدل بفضل قوته عليه، الذي إذا رآه الفارسُ في تلك الهيئة هابه وحاد عنه، فإن شد عليه كان أشد لاستخذائه له[٣].

والحال الأخرى أن يخرجوا في الطلب بِعَقِب الغارة، فربما شدَّ على الفارس المُولِّي فيفوته بأن يكون رمحه مربوعًا، أو مخموسًا، وعند ذلك يستعملون النيازك، والنيزك أقصر الرماح.

وإذا كان الفارس الهارب يفوت الفارس الطالب زجَّه بالنيزك، وربما هاب مخالطته فيستعمل الزج دون الطعن، صنيع ذؤاب الأسديّ بعتبة بن الحارث بن شهاب. قال عبيد بن الأبرص:

هاتيكَ تحملُني وأبيضَ صَارِمًا وَمُحَرَّبًا في مارنٍ مَخْمُوسِ[٤]

وهم قوم الغارات فيهم كثيرة، وبقدر كثرة الغارات كثر فيهم الطلب. والفارس ربما زاد في طول رمحه ليخبر عن فضل قوته، ويخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته، قال كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطوِنا قُدُمًا ونُلْحِقُها إذا لم تَلْحَقِ[٥]

وأما ما ذكروا "من اتخاذ الزُّجّ لسافلة الرُّمح، والسنان لعاليته"، فقد ذكروا أن رجلاً قتل أخوين في نقاب[١]، أحدهما بعالية الرمح، والآخر بسافلته، وقدِم في ذلك

---

(١) **الثفال:** يقال بعير ثفال أي بطئ ثقيل لا ينبعث إلا كَرْهًا. (لسان العرب، ج١، مادة ث ف ل، ص٤٨٩).

(٢) **الأَيِّدُ:** يقال رجل أيِّد أي قوي. (لسان العرب، ج١، مادة أ ي د، ص١٨٨).

(٣) **لاستخذائه:** الاستخذاء الخضوع. (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٥ الهامش).

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص، شرح أشرف أحمد عدرة، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م، ص٧١.

(٥) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق وشرح: مجيد طراد، ط دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص٧٦.

(١) **نقـــاب:** النقاب القناع، والمراد هنا قَتْلِهما فجـــأة على غير ترصد. (المعجم الوجيز، مـــادة ن ق ب، ص٦٢٩).

راكب من قِبَل بني مروان على (قتادة) [١]، يستثبت الخبر من قِبَلِه، فأثبته له[٢].

فهنا نجد الشعوبية قد عابت العرب وطعنت عليهم في آلاتهم الحربية، وسخروا من رماحهم، ومن عُري خيولهم، ومن قناتهم الصماء، مع أن الجوفاء أخف محمـــلاً، وأشد طعنة، كما عابوا عليهم قلة الخبرة في تنظيم جيوشهم، فلم يكونـــوا يعرفـــون الميمنة، ولا الميسرة، ولا القلب، ولا الجنـــاح، ولا يعرفـــون مـــن آلات الحـــرب العَرَّاده، ولا المجانيق.

وقد رد عليهم الجاحظ ردًا مفحمًا بين كذبهم، وافتراءهم على العرب، فهـــم أرادوا من وراء ذلك المقارنة بين حال الجيش العربي، والجيش الفارسي، وأبانوا ما للأول من حقارة في زعمهم، وما للثاني من عِظم، وقد فاتهم أن هـــذه المقارنـــة أحقـــر لشأنهم، وأوضع لمكانتهم، فهؤلاء العرب بآلاتهم الساذجة الحقيرة ــ كما زعموا ــ سحقوا الفرس بآلاتهم الضخمة العظيمة، وجيوشهم المنظمـــة الـــكثيرة، ــ كمـــا زعموا أيضًا ــ[٣].

---

(١) هو: **قتادة بن دعامة السدوسي البصري.** (البيان والتبيين، ج٣، ص٢٧ الهامش).
(٢) ينظر: البيان والتبيين، ج٣، ص١٩ــ٢٧.
(٣) ينظر: ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، ص٨٥.

المبحث الرابع

الطعن على العرب في حضارتهم وثقافتهم

طعنت الشعوبية على العرب بأنهم كانوا مجموعة قبائل لا تربطها رابطة، وليس لها من الحضارة نصيب، وأنهم كانوا في حالة سمجة من الهمجية والتخلف، في حين أن الشعوب الأخرى كالفرس والروم كانوا أصحاب حضارات راسخة، فهم أفضل من العرب، كما طعنت الشعوبية في العرب بأنهم خلو من كل إنتاج فكري يُذكر، وزعمت بأن أسلوب معيشة العرب وحياتهم تكشف عن هذه الحالة البدائية(١).

وقد قال ابن قتيبة في هذا الطعن: "بلغني أن رجلاً من العجم احتج بقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(٢)، وقال: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، وقد قدم الله الشعوب في الذكر، والمقدم أفضل من المؤخر"(٣).

كما قالت الشعوبية في هذا الطعن أيضًا: "ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها، ومدائن تضمها، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات، مثل صنعة الديباج، وهي أبدع صنعة، ولعب الشطرنج، وهي أشرف لعبة، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد، ومائة رطل، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون، والأسطرلاب الذي

---

(١) ينظر: الجذور التاريخية للشعوبية، ص٦٦.

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٣) فضل العرب، ج١، ص١٠٧، ١٠٨.

يعدل به النجوم، ويدرك به علم الأبعاد، ودوران الأفلاك، وعلم الكسوف، وغير ذلك من الآثار المتقنة. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهي سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة، ولا أثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم"(١).

وقال الجيهاني الشعوبي وهو يسب العرب، ويحط من أقدارها: "يأكلون اليرابيع والضِبَاب، والجرذان والحيات، ويتعاورون(٢)، ويتساورون، ويتهاجون ويتفاحشون، وكأنهم قد سُلخوا من فضائل البشر، ولبسوا أهُبَ الخنازير، قال: ولهذا كان كسرى يسمي ملِك العرب "سكان شاه"، أي ملِك الكلاب. قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجِرائها، والذئاب وأطلائها(٣)"(٤).

كما قال الجيهاني في هذا الطعن: "مما يدل على شرفنا وتقدمنا وعزنا وعلو مكاننا أن الله أفاض علينا النعم، ووسع لدينا القِسَم، وبوّأنا الجنان والأرياف، ونعمنا وأترفنا، ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعذبهم، وضيق عليهم وحرمهم، وجمعهم في جزيرة حَرِجة، ورقعة صغيرة، وسقاهم بأرنق(٥) ضاح(٦)، وبهذا يُعلم أن المخصوص بالنعمة، والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة"(٧).

---

(١) العقد الفريد، ج٣، ص٣٥٣.

(٢) **يتعاورون:** أي يذكر بعضهم عورة بعض، والعورة سوءة الإنسان، وكل ما يستحيا منه. (مختار الصحاح، مادة ع و ر، ص٤٦١).

(٣) **أطلاؤها:** أولادها، والطلي ولد الظبية. (المعجم الوجيز، مادة ط ل ي، ص٣٩٤).

(٤) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٧٩.

(٥) **أرنق:** الماء الكَدِر. (المعجم الوجيز، مادة ر ن ق، ص٢٧٩).

(٦) **ضاح:** متعرض للشمس. (المعجم الوجيز، مادة ض ح ي، ص٣٧٧).

(٧) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٦، ٨٧.

وقال أيضًا: "ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطيّ، ولا الموسيقِى، ولا كتاب الفلاحة، ولا الطبّ ولا العلاج، ولا ما يجرِي في مصالح الأبدان، ويدخل في خواص الأنفس"(١).

الرد على هذا الطعن:

رد ابن قتيبة على قولهم بأفضليتهم على العرب، فقال: "وكنت أرى أهل التسوية يحتجون بهذه الآية، ولم أعلم أن أحدًا يعقلُ يدعي الفضل بها، ولا يرضى بالمحاجزة، وقد غلط من وجهين:

أحدهما: إن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل، قال الله ــ عز وجل ــ: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ**﴾(٢)، فقدم الجن على الإنس، والإنس أفضل منها، وقال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾(٣)، فقدم الأرض، والسماء أفضل منها، وهذا يكثر لو تتبعناه.

والوجه الآخر: أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب، وكل قوم كثروا وانشعبوا فقد صاروا شعوبًا، وحكى ابن الكلبي عن أبيه أن الشعب أكثر من القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة. وإنما نُسبت العجم إلى الشعوب؛ لأن ما أنشعب منها أكثر مما أنشعب من العرب، فجعلت الشعوب علم لأجناسها"(٤).

كما رد ابن قتيبة على طعنهم في حضارة العرب وعزها وشرفها، بقوله: "ومما يدلك على تعزز القوم في جاهليتهم، وأنفتهم، وشدة حميتهم أن أبرويز ملك فارس،

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٩.
(٢) سورة الأنعام: من الآية (١٣٠)؛ وسورة الرحمن: من الآية (٣٣).
(٣) سورة يونس: من الآية (٦١).
(٤) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص١٠٨، ١٠٩.

وأشدها سطوة، وإثخاناً في الأرض، خطب إلى النعمان بن المنذر إحدى بناته، فرده رغبة بها عنه، ولم يزل هاربًا منه حتى ظفر به فقتله.

وكان لقريش بيت الله الحرام العتيق، المنصور من الجبابرة بالطير الأبابيل، لم يزالوا ولاته، وسدنته، والقائمين لأموره، والمعظمين لشعاره، وكان يقال لهم: أهل الله، وجيران الله، لنزولهم الحرم، وجوارهم البيت.

وكان منهم بقايا من الحنفية يتوارثونها عن إسماعيل عليه السلام، منها: حج البيت الحرام وزيارته، والختان، والغسل، والطلاق، والعتق، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة، والرضاع، والصهر"[١].

كما رد التوحيدي على نيلهم من حضارة العرب وعزها وشرفها، فقال: إن ما يدل على تحضرهم في باديتهم، وتبديهم في تحضرهم، وتحليهم بأشرف أحوال الأمرين: أسواقهم التي لهم في الجاهلية، مثل دومة الجندل، وهي بقرى كلب، وهي النصف بين العراق والشام، وكان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المشَقَّرُ في شهر ربيع الآخر، ثم يرتحلون فينزلون إرم، وقرى الشِّحر[٢]، فتقوم أسواقهم أيامًا، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين، ومن سوق عدن تشتري اللطائم[٣]، وأنواع الطيب، ولم يكن في الأرض أكثر طيبًا، ولا أحذق صنّاعًا للطيب من عدن، ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويَرد صنعاء، فتقوم أسواقهم بها، ومنها كانت تُجلب آلة الخرز، والأدم والبرود، وكانت تجلب إليها من

---

(١) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص٨٧.
(٢) **الشحر:** صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان. (المصباح المنير، مادة ش ح ر، ص٣٠٦).
(٣) **اللطائم:** نوافح المسك، أي سُرره، الواحد لطيمة. (هامش الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٤).

معافر[١]، وهي معدن البرود والحبر، ثم يرتحلون إلى عكاظ وذي المجاز في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحادّون، ثم يقفون بعرفه ويقضون ما عليهم من مناسكهم، ثم يتوجهون إلى أوطانهم.

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قَرُب من العرب ومن بَعُد. هذا حديثهم، وهم هَمَل لا عزّ لهم إلا بالسؤدد، ولا مَقعِل لهم إلا السيف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأدوية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبرّ والبحر، لم يقعدوا عن شَأْوِ من تقدّم بآلاف السنين، ولم يَعجزوا عن شيء كان لهم، بل أَبَرُّوا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا، وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف، ليس إلى مرده سبيل ولا لجاحده ومنكره دليل[٢].

وقال التوحيدي أيضًا: "وقد رأيتَ حين هبت ريحهم وأشرقت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونُصِّرَتْ خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية، كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها، أو تِعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفوا، وقطنت بين أطناب بيوتهم سَهوَا رَهْوا، وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلىَّ مستحقِّيه باختياره، ولا غالب لأمر الله، ولا مبدل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي**

---

(١) **معافر:** جمع مَعْفَر، سمي به مَعَافِر بن مر وينسب إليه على لفظه فيقال ثوب معافري، ثم سميت القبيلة باسم الأب وهي حي من أحياء اليمن. (المصباح المنير، مادة ع ف ر، ص٤١٨).
(٢) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٣ــ٨٥.

الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]، ولله في خلقه أسرار تذللها مجاري الأقدارحتى يُنتهى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار"[٢].

وعلى طعنهم في مُلك العرب ومدائنها وتمدنها رد عليهم ابن قتيبة بقوله: "تتساوى العرب وفارس في أن الفريقين ملكوا، وتفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوة، وقواعد مُلك فارس استلاب وغلبة، وتفضلها العرب بأن ملكها ناسخ، وملك فارس منسوخ، وتفضلها بأن ملكها متصل بالساعة، ومُلك فارس محدود، وتفضلها العرب بأن ملكها واغلٌ في أقاصي البلاد، داخل في آفاق الأرض، وملك فارس شظية منه، ليس فيه الشام ولا الجزيرة، ولا خراسان في أكثر مُدَدِهم، ولا اليمن إلا في أيام وَهْرِز[٣]، وسيف بني ذي يزن"[٤].

ورد عليهم الألوسي بقوله: قد بلغت مدنية العرب في الأيام الخالية إلى ما لم يبلغها أحد إذ ذاك، وإن انقطع عنا أخبارهم، هذه آثار مبانيهم العظيمة، وبقايا مدنهم الجسيمة تشهد لنا بذلك، ومدينة تدمر كانت إحدى مدن العرب ومبانيها كما في القاموس وغيره، وما يشاهد من بقاياها من أعاجيب الأكوان التي تعجز أهل العصور المتأخرة عن مطاولتها في رصانتها. وتبابعة اليمن وإذواؤها بلغ تسلطهم على البلاد، واستيلاؤهم على الأقطار إلى ما يكل القلم عن وصفه.

ومنهم الذي ساوى بين الصدفين، وطاف بلاد الأرض ما بين المشرقين والمغربين، وهو الذي كان يلقب بذي القرنين على خلاف ما تزعمه الشعوبية وغيرهم، وهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٢٦).
(٢) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨١.
(٣) **وَهْرِز:** قائد فارس بعث به كسرى أنوشروان مع سيف بن ذي يزن الحميري منجدًا له على الحبشة حين غلبت على اليمن. (رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول، ط مكتبة الخانجي، بدون تاريخ، ص٢٠١).
(٤) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص٥١.

بعض أهل العلم من أنه إسكندر الرومي، فإن الشعر القديم شاهدٌ لما قلناه، بل هو أقوى دليل على ذلك، قال أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويًا بِالْحِنْوِ في جِدث هناك مقيم

والحنو في ناحية المشرق.

وقال النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي ابن الصحابي:

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتمُ

فمن الراجح أن اسمه الصعب، كما وقع ذكر اسمه في شعر امرئ القيس، وأوس ابن حجر، وطُرَفة بن العبد(١).

ويتابع الألوسي الرد على هذا الطعن قائلاً: وفي وصف القحطانيين يقول الكلاعي(٢):

ورتبنا مراتِبَ كُلِّ ملك فكان لنا الخلائقُ مُقْتَفِينا

سَنَنًّا للبريَّة كلَّ فعل جميلٍ من فعال الأكرمينا

فهم يتشبَّهون بما فعلنا وفي آثارنا يتتبعونا

وليسوا مُدْركين لنا لأنّا جُعلنا السابقينَ الأولينا

---

(١) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٧٧، ١٧٨.

(٢) **الكلاعي هو:** محمد بن الحسن بن محمد القاضي، أبو بكر الكلاعي اليمني، له علم بالحديث والأسانيد، وراوية لكتب الأدب عن مصنفيها، والسير وأيام العرب وتواريخها، والرواية للنظم والنثر، مع العلم بالفقه، فقه الإمامية، فإنه كان عالمهم في مصره، وله كتب مصنفة عند أهل اليمن، منها: "كنز المآثر في مفاخر قحطان"، جزءان، وكتاب "الأنوار"، ومختصرات في الفقه، وله "القصيدة النونية" في الرد على من فاخر قحطان، ثلاث مجلدات، وهي عجيبة، وكان القاضي الكلاعي قد وقف على كتاب "الإكليل" لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني المعروف بابن الحائك اليمني الصنعاني، فريد عصره في أكثر الفنون، وهذا الكتاب من أجمل الكتب في أنساب اليمن وأخبار ملوكها. (معجم الشعراء العباسيين، إعداد عفيف عبدالرحمن، ط دار صادر، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص٤٤٨، ٤٤٩).

والمحمدون من الشعراء وأشعارهم، تأليف علي بن يوسف القفطي (ت:٦٤٦هـ)، تحقيق: حسن معمري / حمد الجاسر، بإشراف الأستاذ شارل بلا، ط جامعة باريس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٣٩٠هـ ــ١٩٧٠م، ص٢٥٩.

وقال في شرح هذه الأبيات أيضًا: إن أول من لبس التاج ورتب وظائف الملك، وعهد عهدًا إلى عامل بلد وأمره بالعدل والإنصاف، ودون الدواوين، وبعث الأمراء إلى الثغور حمير بن سبأ الأكبر، وأول من علق السلسلة على باب قصره ليتعلق بها المتظلمون عبد شمس بن وائل، وأول من نظر في أمر الشاكي، وعزل عامل البلد بسبب أمر الشكاية سعد الكامل، وأول من شفع وأفدى في الأسارى تبع الأصغر، ولذلك سمي ماء السماء، وأول من اتخذ الخط العربي على أبجد مُرَّة بن مرامر، وأول من طيب الميت بالحنوط مقسم بن بهر القضاعي، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي سبق إليها القحطانيين، وهم سبقوا إلى هذه الأمور كلها في الجاهلية، وجاء الإسلام بمثل ذلك، وهذه غاية من ذكاء فطنهم، ومن ذكائهم أيضًا أنهم أول من ربط الخيل وراضها، وعمل لها السروج واللجم، وأول من أبدع أنواع السلاح من سيف ورمح وقوس، وغير ذلك، ولم يكن لأحد بصر بالخيل ولا بالقسي،والإصابة بالرمي مثل ما للقحطانية، فهذا كله ونحوه مما يدل على ما كانوا عليه من التمدن والثروة، وحب التآلف، والترقي في الكمالات[١].

وحيث طعنت الشعوبية في حضارة العرب من خلال مأكلهم ومشربهم، رد عليهم ابن قتيبة بقوله: "فإن هذا وأشباهه طعام المجاوع والضرورات، وطعام نازلة القفر، والفلوات، وإنما يكون هذا عيبًا لو كانت العرب مختارة له في حالة اليُسر، كما تختار بعض العجم الذباب، وبهم عنه غنى، والسراطين والدجاج لهم مُعرضَةٌ، فأما حال الضرورة فالناس كلهم يعسرون، فمن لم يجد اللحم أكل اليربوع، والضب، ومن لم يجد الماء شرب المجدوح، والفظ"[٢].

---

(١) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٧٨ــ١٨٠.
(٢) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص٧٣، ٧٤.

ورد التوحيدي على الجيهاني الشعوبي بقوله: أتراه (يقصد الجيهاني) لا يعلم لو نزل ذلك القفر، وتلك الجزيرة، وذلك المكان الخاوي، وتلك الفيافي والموامي، كل كسرى كان في الفرس، وكل قيصر كان في الروم، وكل بلهور كان بالهند، وكل يقفور كان بخراسان، وكل خاقان كان بالترك، وكل أخشاد كان بفرغانة، وكل صَبَهْبُذَ كان من أسكنان، وأرْدُوان ــ ما كانوا يَعْدُون هذه الأحوال؟ لأن من جاع أكل ما وجد، وطعم ما لحق، وشرب ما قدر عليه، حبًا للحياة، وطلبًا للبقاء، وجزعًا من الموت، وهربًا من الفناء.

أترى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد، وَبَرٍّ (وَبار[١])، وغيرها من الصحاري والفيافي، أما كان يأكل اليربوع والجرذان؛ وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر، وما أسَنَ في تلك الوَهَدات؟

أو ما كان يلبس البُرْجُدَ[٢]، والخميصة[٣]، والسمل[٤]، من الثياب وما هو دونه وأخشن؟ بلى والله، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكل ما حمض وَمَرّ، وخَبُث وضَرَّ، هذا جهل من قائله، وحيف من منتحله، على أن العرب أحسن الناس حالاً وعيشًا إذ جادتهم السماء، وصدقتهم الأنواء، وازدانت الأرض، فهُدِّلت الثمار، واطردت الأودية، وكثر اللبن، والجبن، واللحم، والرُّطَب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وتلاقت القبائل على المحاضر، وتعاقدوا وتعاهدوا[٥].

---

(١) **وَبار:** أرض واسعة ببلاد اليمن زهاء ثلثمائة فرسخ في مثلها، وهي ما بين الشحر إلى تخوم صنعاء. (هامش الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٠).
(٢) **البرجد:** كساء غليظ من صوف أحمر، وقيل كساء ضخم يصلح للخباء. (لسان العرب، ج١، مادة ب ر ج د، ص٢٤٤).
(٣) **الخميصة:** كساء أسود مربع له علمان. (لسان العرب، ج٢، مادة خ م ص، ص١٢٦٦).
(٤) **السمل:** الخلق البالي من الثياب. (لسان العرب، ج٣، مادة س م ل، ص٢١٠٠).
(٥) ينظر: الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٧٩، ٨٠.

أما طعنهم في علوم العرب ومعارفهم، فقد رد عليه ابن قتيبة بقوله: "ونذكر ما للعرب من العلوم، والحكم في الشعر، والكلام المسجع المنثور، من غير استقصاء لفن من ذلك، ولا وقوف من ورائه، إذ كان غرضنا في هذا الكتاب التنبيه والدلالة، ودفع الخصم عما يَنسبُ إليه العرب من الجفاء والغَباوة.

والعلوم جنسان: أحدهما علم إسلامي نتج من بين الدين واللغة كالفقه والنحو، ومعاني الشعر، وهذا للعرب خاصة، ليس للعجم فيه سبب إلا تعلمه، واقتباسه، وللعرب سناؤه، وفخره، والآخر: علم متقادم تتشارك فيه الأمم لا أعلم منه قنًا إلا وقد جعل الله للعرب فيه حظًا، ثم تنفرد من ذلك بأشياء لا تشارك فيها. فمما تنفرد به علم الخيل، فلم نجد لأحد من الأمم اليونانية، والفارسية، والهندية، والرومية، فيه إلا الشيء الذي لا يُذكر مثله، ولا يُعتد به، والعرب تعرف أعضاءها عضوًا عضوًا، بأسماء معروفة من النواصي إلى الأذناب، ومن السروات[١] إلى الأرساغ، وتعرف شمائلها، ومخائلها، وما يبلغ منها الغاية، وما يقصر عنها بالفراسة، وتعرف الجواد العتيق[٢]، والمقرف[٣]، والهجين[٤]، عريًا ومجللا، ومحضرًا[٥]، وما يحضر منها على ضمر، وما يحضر منها على غير ضمر"[٦].

---

(١) **السروات:** هي أعلى الفرس وظهره ووسطه. (لسان العرب، ج٣، مادة س ر ا، ص٢٠٠٢).
(٢) **العتيق:** الرائع الكريم. (مختار الصحاح، مادة ع ت ق، ص٤١١).
(٣) **المقرف:** الفرس الذي دانى الهجنة أمه عربية وأبوه ليس بعربي. (مختار الصحاح، مادة ق ر ف، ص٥٣١).
(٤) **الهجين:** الفرس الذي أبوه عتيق وأمه ليست كذلك. (مختار الصحاح، مادة ه ج ن، ص٦٩١).
(٥) **محضرًا:** ارتفاع الفرس في عدوه. (لسان العرب، ج٢، مادة ح ض ر، ص٩٠٩).
(٦) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص١١٩، ١٢٠.

وقال ابن قتيبة في مواصلة الحديث عن علوم العرب ومعارفها: "وما تنفرد به العرب من العلوم، العلم بمناظر النجوم، وأسمائها، وأنوائها، ومطالعها، ومساقطها، والاهتداء بها. قال الكميت يمدح رجلاً:

مالت إليه طلاهًا واستُطيفَ بـه كما يطيف نجوم اللّيل بالقطِب[١]

لأن مدار النجوم على القطب، وقال كثير:

فَدَعْ عنكَ سُعْدي إنَّما تُسعفُ النَّوى قِرانَ الثرّيا مـرّة ثـمَّ تأفُـلُ[٢]

يريد أن الثريا تقارن الهلال لليلته في السنة مرة واحدة، ثم تغيب، وكذلك سعدي إنما تلاقيها مرة في الحول، وهذا إنما يعرفه أعلم الناس بالمناظر، وأشدهم للنجوم مراعاة، وتفقدًا"[٣].

وقال ابن قتيبة أيضًا: "ومن ذلك الفراسة والتوسم، يتوهم كثير من الناس أنه لاحظَّ للعرب فيهما، ولها منهما الحظ الأوفر، قال الشاعر[٤]:

لا تسألِ المرءَ عن خلائقـهِ في وجهه شاهد مـن الخَبـرِ

وقال آخر[٥]، في رسول الله ﷺ :

لو لم تكُنْ فيه آيـاتٌ مبيَّنَـةٌ كانت بديهَتهُ تُنْبِيكَ بالخَبَر[٦][٧]

---

(١) البيت في الأزمنة والأمكنة، تأليف الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، ضبطه خليل المنصور، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ــ١٩٩٦م، ص٤١٨.

(٢) ديوان كثير عزة، شرح: د/ إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت ــ لبنان ١٣٩١هـ ــ١٩٧١م، ص٢٩٣.

(٣) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص١٢٧، ١٢٨.

(٤) هو سلم بن عمرو بن حماد الملقب بالخاسر، وسمي بالخاسر؛ لأنه أنفق مالاً وافرًا على الأدب، من شعراء الدولة العباسية، توفى سنة (١٨٦هـ). (ينظر: فضل العرب، الهامش ص١٣٦).

(٥) هو: **عبد الله بن رواحه.**

بـــــــــــــــــالخَبَر[١][٢]

كما قال ابن قتيبة في معرض الحديث عن علوم العرب ومعارفهم: والعرب أخطب الأمم ارتجالاً، وأذلقها ألسنة، وأحسنها بيانًا، وأشدها اختصارًا حين الاختصار.

لما منع أهلُ مرو الماءَ، وزجَّته إلى الصحارى كتب إليهم أبو غسان: إلى بني استها أهل مرو ليمسيِّني الماء، أو لتصبحنّكم الخيل، فوافاهم الماءُ قبل أن يُعتَموا.

(١) ديوان عبدالله بن رواحة، ودراسة في سيرته وشعره، د/ وليد القصاب، ط دار العلـــوم، الطبعـــة الأولى ١٤٠١هـ ــ١٩٨١م، ص٩٤.

(٢) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص١٣٦.

وقال المأمون للعتابي[١]: بلغني وفاتُك فغمَّني، ثم بلغتني وفادتُك فسرَّتني. قال: يا أميرَ المؤمنين، لو قُسمتْ هذه الكلماتُ على أهلِ الأرضِ لوسعَتْهم، وذلك أنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك. قال: سلني، قال: يدُكَ أطلقُ بالعطاء من لساني[٢].

وقال ابن قتيبة مشيرًا إلى علم العرب من الشعر: "وللعرب الشعر لا يشركُها أحد من الأعاجم فيه، على الأوزان، والأعاريض، والقوافي، والتشبيب، ووصف الديار، والآثار، والجبال، والرمال، والفلوات، وسُري الليل والنجوم، وإنما كانت أشعار العجم في مطلق من الكلام، ومنثور، ثم سمع بعد قومٌ منهم أشعار العرب، وفهموا الوزن والعروض، فتكلفوا مثل ذلك في الفارسية، وشبهوه بالعربية.

والشعر معدن علم العرب، ومقر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام، ومن لم يكن عندهم على شرفه، وما يدَّعيه لسلفه من المناقب الكريمة، والفعال الحميدة، بينَّةٌ منه شذَّت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام، وإن كانت جسامًا. ومن قيدها بقوافي الشعر، وأوثقها بأوزانه، وشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف أخلدها على الدهر، وأخلصها من الجحد، ودفع عنها كيد العداة، وغض بها عين الحسود، ولم تزل وإن كانت صغارًا، ماثلة للعيون، حاضرة للقلوب"[٣].

---

(١) **العتابي:** هو كلثوم بن عمرو العتابي التغلبي، شاعر بليغ مطبوع، من شعراء الدولة العباسية، ومنصور النَّمَري تلميذه وراويته، وكان منقطعًا إلى البرامكة، فوصفوه للرشيد، ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ، وعظمت فوائده منه، ثم فسدت الحال بينه وبين منصور تلميذه. (ينظر: الأغاني، ج١٣، ص٧٤).

(٢) ينظر: فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص١٤٦ــ١٤٩.

(٣) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص١٤٩، ١٥٠.

كما رد ابن قتيبة على الجيهاني الشعوبي حين قال إنه لا يوجد للعرب كتب في الطب، ولا في علم النجوم والحساب وغيرها. فقال بعد الكلام عن علوم العرب ومعارفها: "فهذا ما للعرب من العلوم قد دللنا عليه بقليل ما ذكرنا منه، وهو لهم خالص لا يُنازَعونه، ولا يدعي أحدٌ من الأمم أنهم أخذوا شيئًا من ذلك عنه، وكل ما يعلمه أهل فارس فهم له متعلمون، وفيه لغيرهم متبِّعون، ولأعقاب الأمم واطئون.

فنحن إن سألنا عن قدماء الأطباء دُللنا على أبقراط، وجالينوس، وإن سألنا عن أول علم النجوم والحساب دُللنا على كتاب إقليدس، وكتاب المجسطي، وإن سألنا عن حد المنطق دُللنا على كتاب أرسطوطاليس، وإن سألنا عن علم اللحون دُللنا على كتاب الموسيقا. وهذا كله للروم، واليونان، وليس لأهل فارس فيه إلا ما لغيرهم من القابسين المستفيدين.

وللروم الفلاحة، وللهند الشطرنج، وكتاب كليلة ودمنة، والحساب بالحروف التسعة، ولهم طب قديم صحيح عن استنباط يخالفون في كثير منه اليونانيين. ومن الدليل على ذلك ما اقر به أهل فارس على أنفسهم في كتاب سير ملوكهم، فإنهم ذكروا أن سابور لما أسن، وكلَّ بصره، ووهنت قواه شكا إلى أهل مملكته الضّعْفَ عن سياستهم، وأمرهم بالتماس من يضطلع بأمورهم فأكبروا ذلك، وقطعوا به، وسألوه الإذن لهم في طلبَ الأطباء له، فأذن لهم، فأرسلوا إلى ملك الهند رسولاً، وبعثوا إليه بهدية عظيمة، وسألوه أن يبعث إليهم طبيبًا من أفاضل من عنده ففعل، فلم يزل يعالجه حتى أشتد عصبه، وانبسط جلده، وارتد بصره، وركب للصيد، وهش للنساء، فأحسن مكافأة

الطبيب، وأمره أن يتخير أحب المواضع إليه من مملكته لينزله، فاختار السوس[١]، فسكنها، فورث طبه أهل السوس.

قالوا: وقد كان أيضًا أُسكن السوس سبيًا من الروم فتعلموا منه الطب، فصار أهل السوس أطباء أهل فارس، وهذا خبر صادق؛ لأنا نجد في جامع الطب المعمول بالسوس أخلاطًا هندية، وأخلاطًا رومية.

فإن ادُّعى أنَّ الإسكندر لما دخل أرض فارس، وقتل فيها، وسبى، وأخرب، نقل كتب علومهم إلى الروم، وترجمها بلسانهم، وأحرق أصولها التي كانت عندهم فصارت علومهم للروم.

قلنا خبرُكم هو إقرار على أنفسكم يقبل فيه قولكم، وخبركم الثاني دعوى لما في أيدي غيركم تحتاجون معه إلى إقرار الروم لكم به، وإحضار بينه وبرهان"[٢].

وممن ردوا على طعن الشعوبية في علوم العرب ومعارفهم التوحيدي، حين قال: "فالذي لا شك فيه من وصف العرب، ولا جاحد له من حالها، أنه ليس على وجه الأرض جيل من الناس ينزلون القفر، وينتجعون السحاب والقطر، ويعالجون الإبل والخيل والغنم وغيرها، ويستبدون في مصالحهم بكل ما عز وهان، وبكل ما قل

---

(١) **السوس:** بلدة بخوزستان فيها قبر النبي دانيال، ويقال إن أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور السوس، وتُسْتَر، وأول من حفر نهرها، وبني كورها أردشير بهمن، وفتحت الأهواز في أيام عمر بن الخطاب ﷺ على يد أبي موسى الأشعري، وكان آخر ما فتح منها السوس، فوجد بها موضعًا فيه جثة دانيال ــ النبي عليه السلام ــ فأخبر بذلك سيدنا عمر، وسأل عن ذلك، فعرف أن بُخت نصّر نقله إليها لما فتح بيت المقدس، وأنه مات هناك، فكان أهل تلك البلاد يستسقون بجثته لما قحطوا، فأمر عمر ﷺ بدفنه فسَكَرَ نهرًا، ثم حفر تحته ودفنه فيه وأجرى الماء عليه، فلا يُدْري قبره إلى الآن. (معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، الجزء الثالث، ط دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ ــ١٩٧٧م، ص٢٨٠، ٢٨١).

(٢) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج٢، ص٢٠٥، ٢٠٦.

وكثر، وبكل ما سهل وعسر، ويرجون الخير من السماء في صوبها، ومن الأرض في نباتها، مع مراعاة الأوان بعد الأوان، وثقة بالحال بعد الحال، وتبصرة بما يفعل ويجتنب، ما للعرب من علمهم بالخصب، والجدب، واللين والقسوة، والحر والبرد، والرياح المختلفة، والسحائب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة. وهذا لأنهم مع توحُّشهم مستأنسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسنُ العادات، ومن أخلاق البادية أطهرُ الأخلاق.

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن، وأرباب الحضر؛ لأن الدناءة والرِّقَّة والكَيْسَ والهَيْنَ والخلابة والخداع والحيلة والمكر والخِبّ تغلب على هؤلاء وتملكهم؛ لأن مدار أمرهم على المعاملات السيئة، والكذب في الحِسِّ، والخلف في الوعد، والعرب قد قدسها الله عن هذا الباب بأسره، وجبلها على أشرف الأخلاق بقدرته"[١].

وقد رد التوحيدي على الجيهاني الشعوبي حين قال: ليس للعرب كتاب إقليدس ... إلخ[٢].

فقال التوحيدي: "فليعلم الجيهاني أن هذا كله بنوع إلهي لا بنوع بشريّ، كما أن هذا كله لغيرهم بنوع بشري لا بنوع إلهي، وأعني بالإلهي والبشري الطباعي والصناعي، على أن إلهي هؤلاء قد مازجه بشري هؤلاء، وبشري هؤلاء قد شابه إلهي هؤلاء، ولو علم هذا الزاري لعَلِم أن المجسطي وما ذكره ليس للفرس أيضًا، وما عندي أنه مُكابر فيدعي هذا لهم، فإن قال: هو لليونان، ويونان من العجم، والفرس من العجم، فأنا أُخرج هذه الفضيلة من العجم إلى العجم، فهذا حيف منه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٢، ٨٣.
(٢) ورد الطعن ص٧٣ من البحث.

على نفسه، وشهادة على نقصه؛ لأنه لو فاخر يونان لم يستطع أن يدّعي هذا للفُرس، ولا يمكنه أن يقول: نحن أيضًا عجم، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متصلة بنا، وراجعة إلينا، ومتى قال جُبِه بالمكروه وقوبل بالقَذْع، وقيل له صه"[١].

وممن ردوا أيضًا على طعن الشعوبية في علوم العرب ومعارفهم الألوسي حيث بدأ كلامه بالحديث عن الحرف والصنائع، فقال: إذا كان هناك من يدعي أن الفضيلة بمعرفة الصنائع والحرف حتى يرجح غير العرب عليهم في ذلك، فنرد عليهم بأن العرب كانوا يأنفون من تعاطيها، ويعدون أصحابها من الأسافل، حيث كان التفاخر والتفاضل بينهم يومئذٍ بالشجاعة، والفروسية، والفصاحة، وغير ذلك مما هو منشأ الفضيلة في نفس الأمر، مع أن العرب أكثر استعدادًا من غيرهم لتعلم الصناعات وسائر الفنون العقلية.

ألا ترى أنهم بعد ظهور الإسلام قد بلغوا منها مبلغًا تقدموا به على غيرهم، وسبقوا به من سواهم.

ففي تاريخ دردي وزير المعارف العمومية بفرنسا ما معناه: بينما أهل أوروبا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سمِّ الخياط، إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية، من علوم أدب، وفلسفة، وصناعات وأعمال يدٍ وغير ذلك، حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف، ومنها انتشرت في الأمم، واغتنم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات، وفنونًا علمية.

وفي هذا الكتاب يقول دردي أيضًا: كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤاداة بلغتين الحميرية في اليمن، والقرشية في الحجاز، وبالأخيرة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٩، ٩٠.

جاء القرآن، ولا يخفى عليك أن الذي يقابل الحميرية هو المضرية، وإن وقع الإجماع في القراءة على خصوص القرشية؛ ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة، إلى أن قال: ولم يكن للعرب في أول الأمر إلا تلك الآداب، ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات، واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف، فأخذوا من اليونان تآليف أرسطوا وشرحوها بإمعان نظر.

وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى، والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية، وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المأمون عالمين من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار، ويزناها ليثبت بذلك تكوين الأرض بالمشاهدة، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي الخط المقيس.

وقد شرح العرب كتاب إقليدس، وهذبوا زيج بطليموس، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج، كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية، فوجدوا بينهما عدة دقائق، واخترعوا للتحريرات آلات جديدة إلى غير ذلك، مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية، ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوروبا بكثير محل رصد عجيب.

وقد اشتهرت العرب أيضًا بمعرفة الطب الذي كان تلقوه من كتب اليونان، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر.

ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة، وابن رشد، وقد بلغا من الشهرة إلى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم إياهم، كما

يحكى أن بعض ملوك قسطيلية[١]، كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته على يد أطباء العرب، وحصل من لطف الخليفة على الإذن في أن يذهب ويداويه المسلمون. ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه، واستعمال الراوند وأدوية كثيرة.

ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافيا، وسبب تقدسهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم في الأسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التي لم يصل إليها أهل أوروبا أو نسوها بعد ما كانت معروفة لهم، ومن مشاهيرهم في هذا الفن أبو الفداء، والمسعودي، والإدريسي، وهذا الأخير هو الذي استدعاه روجير ملك صقلية، وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه نزهة المشتاق.

ومن مآثر العرب اصطناع الجوابي[٢]، والفوارات، والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر الذي يجلبونه من المشرق، ومن مقاطع أسبانيا الجنوبية.

ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذي بناه عبدالرحمن الأول بقرطبة، وكان به ألف وثلاث وتسعون أسطوانة، وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل، ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم، وقد بناه عبدالرحمن الثالث على شاطئ الوادي الكبير، وبه ينبوع عظيم يغور منه شبه باقة من الزيبق، ثم ينعكس في قصعة من المرمر.

---

(١) **قسطيلية:** هي مدينة بالأندلس، وهي حاضرة نحو كورة البيرة كثيرة الأشجار، متدفقة الأنهار، تشبه دمشق، عليها سور حصين، من مدنها توزر، والحَمّة، ونفطة، وتَوْزَر هي أمُها. (معجم البلدان، ج٤، ص٣٤٨).

(٢) **الجوابي:** جمع جابية وهو الحوض الضخم الذي يُجبي فيه الماء للإبل. (لسان العرب، ج١، مادة ج ب ي، ص٥٤٢).

ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التي هي في آنٍ واحد قصر وحصن، وبها عدة أمور تصلح أن تكون مثالاً للطافة البناء، وحسنه خصوصًا وسطها المسمى ببطحاء الأسود.

وأما التجارة، فقد كان للعرب حسن رغبة فيها في سائر الأوقات، ثم لما امتدت سلطنتهم من البريني وهي جبال بين فرنسا وأسبانيا إلى جبال هملاي التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض يومئذٍ.

وأما الفلاحة، فقد كان للعرب حسن رغبة فيها إذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة[١].

فكل ما سبق كان شهادة من غير المسلمين للعرب بالتقدم في العلوم والمعارف ومن هنا يتبين أن كلام الشعوبية لا أصل له، ولا يمكن أن يلتفت إليه صاحب عقل راجح، أو ذو إنصاف لصاحب حق.

---

(١) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٨٠ــ١٨٤؛ وينظر: مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف: خير الدين التونسي، ط مطبعة الدولة بتونس، الطبعة الأولى ١٢٨٥هـ ــ١٨٦٨م، ص٢٢ــ٢٨.

المبحث الخامس

الطعن على العرب في الـــكرم الذي اشتهروا به

وقد اضطلع بهذا الطعن سهل بن هارون، الذي قال فيه ابن النديم: "وكـــان حكيمًـــا فصيحًا شاعرًا، فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، وكان نهاية في البخل، عمل إلى الحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغبـــه فيـــه، ويستميحه في خلال ذلك، فأجابه الحسن على ظهر رسالته، وصلت رسالتك، ووقفنا على نصيحتك، وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك، والتصديق لك، والسلام، ولـــم يصله عنها بشيء"(١).

"وقد كان العرب يتمدحون كثيرًا بالكرم، ويعدونه من أكبر مناقبهم، كمـــا اشـــتهر الفرس بالبخل، فوضع سهل هذه الرسالة، يقلب فيها قيمة الكرم والبخل، ويعد الكرم رذيلة، والبخل فضيلة"(٢).

ومما ورد في هذه الرسالة قوله: عبتموني حين ختمتُ على سد عظيم، وفيه شـــيءٌ ثمينٌ من فاكهةٍ نفيسةٍ، ومن رُطَبة غريبة، على عبد نَهم وصبيّ جَشِع، وأمة لَكْعاء، زوجة خَرْقاء، وليس من أَصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة أن يستوي في نفيس المأكول، وغريـــب المشـــروب، وثمـــين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كـــل شـــكل، التـــابع والمتبوع، والسيّد والمسوُد، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس، ومواقع أسمائهم

---

(١) الفرسهت ــ في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ــ تأليف محمد بن إسحق النديم المعروف بأبي يعقوب الوراق، ج١، تحقيق: رضا تجدد، بدون طبعة ولا تاريخ، ص١٣٣.

(٢) ضحى الإسلام، ج١، ص٨٦.

في العُنوانات، وما يُستقبلون به من التحيات. وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له أكتراث العارف، من شاء أطعم كلبه الدجاج المسّمن، وأعلفَ حِماره السمسم المقشر. فِعبتموني بالختم، وقد خَتَم بعض الأئمة على مِزود سويق، وختم على كيس فارغ، وقال: طينة خير من طَنَّةً. فأمْسَكتم عمّن ختم على لا شيء، وعبتم من ختم على شيء.

وعبتموني حين قلتُ للغلام: إذا زدتَ في المَرق فرد في الإنضاج، لتجمع بين التأدُّم باللحم والمرق، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب، وقد قال النبي ﷺ: إذا طبختم لحمًا فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدُكم لحمًا أصابَ مرقًا(١).

وعبتموني بخصف النعال، وبتصدير القميص، وحين زعمتُ أن المخصوفة أبقى وأوطأ وأوقى، وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع. وقد كان النبي ﷺ يخصِفُ نعله، ويرقع ثوبَه، ويلطع(٢) إصبعه، ويقول: لو أُتيتُ بذِراع لأكلت، ولو دُعيت إلى كُراع لأجبت(٣). ولقد لفّقت سُعدي ابنةُ عوف إزارَ طلحة، وهو جَواد قريش، وهو طلحة الفيَّاض، وكان في ثوب عمر رقاعُ أدَم، وقال: من لم يستحي من الحلال خفَّت مؤنته وقلّ كبره. وقيل: أن ترقيع الثوب يجمعُ مع الإصلاح التواضعُ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبر.

وعبتموني حينَ قلتُ: لا يغترَّنَّ أَحد بطول عُمْره، وتقوُّس ظهره، ورقةِ عظمه، ووَهن قوته، أن يرى أكرومته، ولا يُخرجْه ذلك، إلى إخراج ماله من يديه وتحويله

---

(١) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط دار إحياء الكتب العربية، ج٢، ص١١١٦، رقم ٣٣٦٢، كتاب الأطعمة، باب من طبخ فليكثر ماءه.

(٢) **يلطع:** اللَّطْع: اللَّحْس. (مختار الصحاح، مادة ل ط ع، ص٥٩٨).

(٣) صحيح البخاري، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م، ص٣٠٨، رقم ٢٣١٠، كتاب الهبة، باب القليل من الهبة.

إلى مِلك غيره، وإلى تحكيم السَّرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعلَّه أن يكون معمرًا وهو لا يدري، وممدودًا له في السنّ وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أو يحدُث عليه بعض مخبآت الدهور، ممّا لا يحظُر على البال ولا تدركه العقول، فيستردّه ممن لا يردُّه. ويظهرُ الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعفَ ما كان عن الطلَب، وأقبحَ ما يكون به الكسبُ، فبعتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: أعمل لدنياك عملَ من يعيش أبدًا، وأعمل لآخرتك عملَ من يموت غدًا.

وعبتموني حين زعمتُ أني أقدّم المال على العلم؛ لأنّ المال به يغاثُ العالم، وبه تقوم النفوس، قبل أن تُعرف فضيلةُ العلم، وأنّ الأصل أحقّ بالفضل من الفرع، وأنّي قلتُ: وإن كنّا نستبينُ الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين: وبالخَلَّة نعمي. وقلتم: وكيف تقول هذا، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدَّم الأدباء: العلماء أفضلُ أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماءِ يأتون أبوابَ الأغنياء أكثرَ مما يأتي الأغنياء أبوابَ العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالهما هي الفاصِلةُ بينهما؟ وكيفَ يستوي شيءٌ ترى حاجة الجميع إليه، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض.

وعبتموني حين قلتُ: إن فضل الغِني على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استُغني عنها كانت عُدَّة. وقد قال الحُضين بن المنذر: ودِدت أنَّ ليّ مثلَ أُحُد ذهبًا لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما ينفعُك من ذلك؟ قال: لكثرةِ من يخدُمني عليه.

ولسنا ندعُ سيرةَ الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء، كان رسول الله ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج، وقالوا: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. فقسَّموا الأمور كلَّها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قِسمي الجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق ﷺ إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم، وكانوا يبغضون أهل البيت اللحِمين، وكان هشام يقول: ضع

الدرهُم على الدرهم يكونُ مالاً، ونهى أبو الأسود الدؤلي، وكان حكيمًا أديبًا، وداهيًا أريبًا، عن جودكم هذا المولّد، وعن كرمكم هذا المستحدث، فقال لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق فابسُط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله فإن الله أجود منك. وقال: درهم من حلّ يخرجُ في حقّ، خير من عشرةِ آلافٍ قَبْضًا. وتلقَّط عُرجُدًا من بَـرَم فقال: تضيعون مثل هذا، وهو قوتُ امرئ مسلم يومًا إلى الليل؟! وتلقط أبو الدرداء حبّات من حنطة، فنهاه بعضُ المسرفين، فقال: إيهًا ابن العبسية، إن من فقه المـرء رفقه في معيشته. فلستم عليَّ تردون، ولا رأيي تفندون، فقدِّموا النظر قبل العـزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم، والسلام[١].

وإذا رجعنا إلى هذه الرسالة بأكملها في كتاب البخلاء للجاحظ "نراه فـي فاتحتهـا يتوجه بالحديث فيها إلى بني عمه، وظن القدماء أنه يريد بني عمه الحقيقيين من آل راهبون، وأغلب الظن أنه يقصد العرب، وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هـدايتهم، وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه، مستعيناً بقدرته على الجدل، وصُنع الحجج المنطقية، وبما حفظ من بعض أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين"[٢].

الرد على هذا الطعـــن:

هذه الأدلة التي استعان بها سهل بن هارون من أقـوال الرسـول ﷺ والصـحابة والتابعين "فهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط في الإسراف، أما البخـل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة، فضلاً عن الرسول الكريم ﷺ الذي حض علـى البذل والإيثار والسخاء بكل ما في اليد، كما حض القرآن الكريم لا على الصدقات

---

(١) ينظر: البخلاء للجاحظ، تحقيق: طه الحاجري، ط دار المعارف، الطبعة الخامسـة، (بـدون تاريخ)، ص٩ــ١٦.
(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، ص٥٣٦.

فحسب، بل على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون، وصوَّر المثل الأعلى في ذلك، فقال جل شأنه: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١]، وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل، فأختار من أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ما قد يشهد له، وهو إنما يشهد على زهادتهم في الدنيا، وصغر متاعها في أعينهم حتى بعد إقبالها عليهم، وفرق بين الزهد والبخل، والحرص والشح"[٢].

وقد ساهم الكتّاب العرب في الرد على هذا الطعن بمؤلفات وفيرة، فتناولوا الكرم بالمدح، واستطاعوا من خلال هذا المديح إظهار صفة الكرم بالمظهر الرائع الذي يحض عليه الدين، كما تناولوا البخل المضاد للكرم بما هو منفر منه، ومن هؤلاء الكتَّاب الجاحظ، حيث تحدث في كتابه (المحاسن والأضداد) عن محاسن السخاء، ومساوئ البخل، فقال في محاسن السخاء: لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله، فقال: أخبرني بأحب الناس إليك، وأبغضهم إليك. قال: أحبهم إليَّ كل مؤمن بخيل، وأبغضهم إليَّ كل منافق سخي، قال: ولم ذلك. قال:لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له.

وقال النبي ﷺ السخي قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، قريب من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل[٣].

---

(١) سورة الحشر: من الآية (٩).
(٢) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، ص٥٣٦.
(٣) الجامع الكبير للترمذي، تحقيق: د/ بَشّار عواد معروف، المجلد الثالث، ط دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، كتاب الوصايا، رقم ١٩٦١، باب ما جاء في السخاء، ص٥١٠.

وقال ﷺ : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسمعان الخلائق غير الجـــن والإنس، وهما الثقلان اللهم عجل لمنفق خلفًا، ولممسك تلفًا، وملكان يناديان أيها

الناس هلموا إلى ربكم ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى[١].

وقالت أم البنين ابنة عبدالعزيز، أخت عمر بن عبدالعزيز: لو كان البخل قميصًا ما لبسته، أو طريقًا ما سلكتها، وكانت تعتق في كل يوم رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله، وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة.

وقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا علي كن شجاعًا، فإن الله يحب الشجاع، وكن سخيًا، فإن الله يحب السخي، وكن غيورًا، فإن الله يحب الغيور، يا عليّ وإن إنسان سألك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت أهلاً لها.

وقال النبي ﷺ : تجافوا عن ذنب السخيّ، فإن الله أخذ بيده كلما عثر[٢]. وقال عبدالعزيز بن مروان: لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم إلا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيمًا.

وقال بهرام جور: من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة، والنسيم والريح، كما وعدهم الله في الجنان، فإنه لولا رضاه الجود لم يصفه لنفسه.

وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل الناس وينفق، فقال له: إن النفقة داعية الرزق، وكان جالسًا على باب، فقال للرجل أغلق الباب فأغلقه، فقال: هل تدخل فيه الريح، قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجُعلت الريح تخترق في البيت، فقال: هكذا الرزق، أغلقت فلم تدخل الريح، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق.

وبحاتم يضرب المثل في السخاء، قيل: لما بلغ حاتمًا قول المتلمس الضبعي:

---

(١) صحيح البخاري، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م، ص٣١، كتاب الزكاة، باب فأما من أعطى واتقى، حديث رقم ١٣٠٤.

(٢) شرح الجامع الصغير، العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تقديم: الشيخ/ صالح ابن محمد اللحيدان، والشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، تحقيق: د/ محمد إسحاق محمد إبراهيم، المجلد الخامس، ط دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ـ٢٠١١م، ص٦، حديث رقم ٣٢٢١.

وأعلمُ علمَ حقّ غيــر ظــنٍ وتقوى اللهِ من خيــرِ العتــادِ
لحِفظُ المالِ أَيْسَرُ مِــنَ بُغــاهُ وسَيْر في الــبلادِ بغيــرِ زاد
وإصلاحُ القليل يزيــدُ فيــه ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفسادِ[١]

فقال: ما له قطع الله لسانه يحرض الناس على البخل، أفلا قال:

فلا الجُودُ يُغْني المالَ قبلَ فَنائه ولا البُخلُ في مالِ الشحيح يَزِيدُ
فلا تَلْتَمِس رِزقًا بِعَــيْشٍ مُقَتَّــرٍ لكُلّ غــدٍ رِزّقٌ يَعُــودُ جَدَيــدُ
ألم تَرَ أنَّ الرزقَ غادٍ ورَائــحٌ وأنَّ الذِي أَعطاكَ سوفَ يُعيدُ[٢]

وحكوا عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما كان بأرض عنــزة ناداه أسير فيهم: يا ابا سفانة، قد أكلني الإسار والقمل. قال: والله ما أنا في بلادي، ولا معي شيء، وقد أسأت إليّ أن نوّهت بأسمى، فذهب إلى العنزيين فساومهم فيه، واشتراه منهم، وقال: خلّوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أُؤدّي فــداه، ففعلــوا، فأتاهم بفداء[٣].

وقال الجاحظ في مساوئ البخل: المثل السائر في البخل: هو أبخل من مادر، وهو رجل من بني هلال بن عامر، بلغ من بخله أنه كان يسقي إبله فبقــي فــي أســفل الحوض ماء قليل فسلح[٤] فيه، ومدر[١] به الحوض فسمي مادرًا.

---

(١) ديوان شعر المتلمس الضبعيّ، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ١٣٩٠هـ ـ١٩٧٠م، ص١٧٢، ١٧٣.

(٢) ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره، صنعه يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بني محمد الكلبي، تحقيق: د/ عادل سليمان جمال، ط مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) ينظر: المحاسن والأضداد، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، ط مكتبة الخانجي، القاهرة، (بدون تاريخ)، ص٥١ـ٥٧.

(٤) **فسلح:** منه سلح الطائر وهو منه كالتغوط من الإنسان. (المصباح المنير، مادة سلح، ص٢٨٤).

وفي بني هلال يقول الشاعر:

لقد جلّلتْ خِزْيًا هِلالُ بن عامِرِ بني عامرٍ طُرّاً بسَـلْحةِ مـادِرِ
فأُفٍ لكم لا تذكُرُوا الفَخْرَ بعدَها بني عامرٍ أنتمُ شِرَارُ العَشـائِرِ

وفي المثل: هو أبخل من أبي حُباحِب، وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج، فإذا أراد أحد أن يأخذ منه أطفاه، فضرب به المثل.

وكان أبو عيسى بخيلاً، وكان إذا وقع الدرهم في يده نقره بإصبعه، ثم يقول: كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها، فالآن استقرّ بك القرار، واطمأنت بك الدار، ثم يرمي به في صندوقه، فيكون آخر العهد به، وقيل: نظر سليمان بن مـزاحم إلـى درهم، فقال في شق: لا إله إلا الله، وفي شق: محمد رسول الله، ما ينبغي أن تكون إلا معاذة، وقذفه في صندوقه.

وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلح عليه وسأله أن يتغدّى عنده، ويقول: لعلك تظن أني تكلفت لك شيئًا، والله لا أُقدّم لك إلا ما عندي، فلما أتاه ابن المقفع لم يجد في بيته إلا كِسَرًا يابسة، وملح جريش، وجاء سائل إلى الباب، فقال له الرجل: وسع الله عليك، فلم يذهب، فقال له: والله لئن خرجت إليك لأذقن رأسك، فقال ابن المقفع للسـائل: ويحك! لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تزد كلمة، ولم تقم طرفه عين.

وذكروا أن فتى من مراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم: ألك امرأة، قال: لا، قال: فتزوج وعليّ المهر، فرجع إلى أمه فأخبرها الخبر، فقالت:

إذا حَدَّثتكَ النفسُ أنكَ قـادِرُ على ما حَوَتْ أيدِي الرجالِ فكذَبِ

---

(١) **مدر:** مدرت الحوض أي أصلحته بالمَدَر وهو الطـين. (المصـباح المنيـر، مـادة مـدر، ص٥٦٦).

فتزوج وأتي عمرو بن العاص، فاعتل عليه ولم ينجز وعده، فشكاه ذلك إلى أمــه، فقالت:

لا تَغضَبَنَّ على امرِيءٍ في مالهِ وعلى كرائمِ حُرِّ مالِكَ فاعضَــبِ

وقال بعضهم: مواعيد فلان مواعيد عرقوب، ولمع الآل[١]، وبرق الخُلَّب[٢]، وأمانيّ الكمّون[٣]، ونار الحباحب[٤]، وصلف[٥] تحت الراعدة، وما قيل في ذلك، قول أبــي نوس[٦]:

وعــدتَّني وعــدَك حتَّــى إذا أَطمعْتنــي فــي كَنــزِ قــارُون
جئــتَ مــن الليــل بغسَّــالةٍ تغسِــلُ مــا قلــتَ بصــابوُن

وقول أبي تمام:

يحتاجُ مــن يَرتَجــي نَــوَالكُمُ إلى ثَــلاثٍ مــن غيــر تكــذيبِ

---

(١) **الآل:** الآلة الحربة العظيمة النصل، سميت بذلك لبريقها ولمعانها. (لسان العرب، ج١، مادة أ ل ل، ص١١١).

(٢) **الخُلَّب:** البرق الخُلَّب الذي لا غيث فيه كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطــره ثــم يخلفــك. (لسان العرب، ج٢، مادة خ ل ب، ص١٢٢٠).

(٣) **الكمون:** حب معروف أدق من السمسم، يمكن أن تموت عروقه، وتظل أغصانه خضــراء، كما قال الشاعر:

فأصبحتُ كالكمون ماتت عُروقُــه وأغصانهُ ممــا يُمَنوِّنَــهُ خُضْــرُ

ينظر: لسان العرب، ج٥، مادة ك م ن، ص٣٩٣٣.

(٤) **الحباحب:** الصغار، وحبحبت النار اتقادها. (لسان العرب، ج٢، مادة ح ب ح ب، ص٧٤٧).

(٥) **وصلف:** الصلف مجاوزة قدر الظرف والإدعاء فوق ذلك تكبرًا وتفاخرًا. (مختار الصــحاح، مادة ص ل ف، ص٣٦٨).

(٦) وردت الأبيات في ديوان أبي نواس:

وصاحب أخلف ظني بــه والخير بالصاحب مظنون
جاملني بــالقول حتــى إذا صار لــه مــال وتمكــين
أعرض عني لاويًا شــدقه كأنه فــي الكنــز قــارون

ينظر: ديوان أبي نواس، شرح محمود أفندي واصف، ص١٤٨).

كنوز قــارونَ أن تكــونَ لــه وعمــرِ نــوحٍ وصــبرِ أيــوبِ

وقول حسان بن ثابت[١]:

إني لأعجَبُ من قولٍ غُرِرتَ بـــهِ ... حُلو يمد إليهِ الســمعُ والبصَــرُ
لو تسمعُ العُصمُ من صم الجبالِ به ... ظلَّت من الراسياتِ العُصمُ تنحَدِر
كالخمرِ والشَّهد يجري فوقَ ظاهرهِ ... ومــا لِباطِنِــه طعــمٌ ولا خَبَــرُ
وكالسَّرَاب شَــبيهًا بالغَــديرِ وإن ... تَبْغ السرابَ فلا عــينٌ ولا أثَــرُ
لا ينبُتُ العُشبُ عن بَرْقٍ وراعــدَةٍ ... غرَّاء ليس لها سيلٌ ولا مطَــرُ[٢]

كما أسهم الجاحظ في الرد على هذا الطعن، فألف كتابه البخلاء، أشار فيــه إلــى البخل عند الفرس، فقال: "نبدأ بأهل خراسان، لإكثار الناس فــي أهــل خراســان، ونخص بذلك أهل مرو بقدر ما خصّوا به:

قال أصحابنا: يقول المروَزيُّ[٣] للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جُلوسه: تغــديتَ اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغدّيت لغدّيتك بغَداءٍ طيّب، وإن قال: لا، قــال: لو كنتَ تغدّيتَ لسقيتُك خمسة أقداح، فلا يصيرُ في يده على الــوجهين قليــل ولا كثير.

يقول الجاحظ: وكنتُ في منزل ابن أبي كريمة، وأصله من مَرو، فرآني أتوضّأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله! تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلــتُ: لــيس بعذب، إنما هو من ماء البئر، قال: فتفسدُ علينا كوزنا بالملوحــة، فلــم أدر كيــف أتخلص منه"[٤].

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، شرح عبدًا على مهنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ــ١٩٩٤م، ص١٢٢.
(٢) ينظر: المحاسن والأضداد، ص٥٨ــ٦٥.
(٣) **المروَزيُّ**: يطلق اللفظ على الفرد من أهل مرو.
(٤) البخلاء للجاحظ، ص١٧.

كما ذكر الجاحظ في كتابه البخلاء من الحكايات ما يدل على أن البخل طبع في أهل خراسان حتى عم جميع حيوانهم، فقال: "وقال ثمامة: لم ارَ الديك في بلدة قطّ إلاّ وهو لافظ، يأخذُ الحبة بمنقاره، ثم يلفِظها قدام الدجاجة، إلا دِيَكة مرو، فإن رأيتُ دِيَكة مرو تسلُب الدَّجاج ما في مناقيرها من الحبّ. قال: فعلمتُ أنّ بخلَهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم. فحدثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشد، فقال: كنتُ عند شيخ من أهل مرو، وصبيٌّ له صغير، يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثًا، وإما ممتحنًا: أطعمني من خبزكم، قال: لا تريده، هو مُرّ، فقلت: فاسقني من مائكم، قال: لا تريده، هو مالح، قلتُ: هات ليّ من كذا وكذا، قال: لا تريده، هو كذا وكذا ... إلى أن عدَدْتُ أصنافًا كثيرة، كلّ ذلك يمنَعُنيه ويبغضه إليّ، فضحك أبوه، وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علّمه ما تسمع؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم"(١).

وقال الجاحظ: "حدثني مُوَيس بن عِمران قال: قال رجل من أهل خراسان لصاحبه ــ وكانا إما متزاملين وإما مترافقين ــ لم لا نتطاعم؟ فإن يد الله مع الجماعة، وفي الاجتماع البركة، وما زالوا يقولون: طعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة، فقال له صاحبه: لولا أعلم أنك آكل مني لأدخلتُ هذا الكلام في باب النصيحة، فلمّا كان الغدُ، وأعاد عليه القول، قال له: يا عبدَ الله معك رغيفٌ ومعي رغيف، ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصُك على مؤاكلتي، تريد الحديث والمؤانسة؟ اجعل الطبق واحدًا، ويكون رغيف كلّ منا قدّام صاحبه، وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصفَ رغيفي ستجدُه مباركًا، إنما كان ينبغي أن أكون أجدهُ أنا لا أنت"(٢).

---

(١) البخلاء للجاحظ، ص١٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٩.

وممن ساهموا في الرد على هذا الطعن التوحيدي، وذلك من خلال إشادته بالكرم العربي، حين قال: "والعرب قد قدسها الله عن هذا الباب بأسره، وجبلها على أشرف الأخلاق بقدرته، ولهذا تجد أحدهم وهو في بَتٍ[١]، حافيًا حاسرًا يذكر الكرم، ويفتخر بالمحمدة، وينتحل النجدة، ويحتمل الكَلّ[٢]، ويضحك في وجه الضيف، ويستقبله بالبِشر، ويقول: أحدّثه إن الحديث من القِرى"[٣].

كما رد على هذا الطعن أيضًا الألوسي، حيث قال: أما كون العرب أقرب للسخاء من غيرهم، فذاك لا يحتاج إلى بيان، ولا يعوز إلى إقامة دليل ولا برهان، قد شهد لهم به الأودّاء والأعداء، واعترف لهم الأقربون والبعداء، إذا ألم بهم ضيف حكموه على أنفسهم، واستهانوا له ما وجدوه من نفيسهم، وهذا شعرهم ينطق بما جُبلوا عليه، ويُعرب عما ألفوه وجنحوا إليه، فقد قال عتبة بن بجير المازني من بني الحارث بن كعب:

ومستنبحٍ بات الصدَى يَستتيهُهُ ... إلى كل صوتٍ فهو في الرحل جانحُ
فقلتُ لأهلي: ما بُغام مطيةٍ ... وسارٍ أضافته الكلاب النوابحُ
وقالوا: غريبٌ طارقٌ طوَّحت به ... مُتُون الفيافي والخُطوبُ الطوارحُ
فقمتُ ولم أجْثِمَ مكاني ولم تُقم ... مع النفس عِلاّتُ البخيل الفواضحُ
وناديتُ شِبْلاً فاستجاب وربما ... ضمّنا قِرَى عُشْرٍ لمن لا نُصافحُ
فقام أبو ضيفٍ كريمٌ كأنه ... وقد وجَدّ من فَرطِ الفُكاهةِ مازحُ
إلى جَذْمِ مال قد نِهكْنا سَوَامَةُ ... وأعراضُنا فيه بواقٍ صَحَائحُ
جعلناه دون الذمّ حتى كأنه ... إذا عُدّ مالٌ المكثرين المنائحُ

---

(١) **بَتٍ:** البت كساء غليظ من صوف أو وبر مهلهل مربع أخضر. (لسان العرب، ج١، مادة ب ت ت، ص٢٠٤).
(٢) **الكلّ:** الضعيف الذي لا ولد له ولا والد. (مختار الصحاح، مادة ك ل ل، ص٥٧٦).
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٨٣.

لنا حَمْدُ أرباب المئينَ ولا يُـرى إلى بيتنا مالُ مـع الليـل رائـحُ[١]

وقال آخر:

ومستنبح قال الصدى مثل صَوْتِهِ حَضَأْتُ له نارًا لها حطـبٌ جَـزْلُ
وقمت إليـه مُسْـرعًا فَغَنِمْتُـهَ مخافة قَوْمي أن يفـوزوا بـه قبـلُ
فأوسعني حمدًا وأوسعته قِـرىً وأرخِصْ بحمدٍ كان كاسبَهُ الأكلُ[٢][٣]

ورد على هذا الطعن أيضًا ابن قتيبة بقوله: "وكذلك الأمم فيها أمة كرم بلبانهـا[٤]، كالعرب، فإنها لم تزل في الجاهلية تتواصى بالحلم، والحياء، والتـذمم، وتتعـاير بالبخل، والغدر، والسفه، وتتنزه عن الدناءة، والمذمة، وتتدرب بالنجدة، والصـبر، والبسالة، وتوجب للجار من حفظ الجوار، ورعاية الحق فوق ما توجبُـه للحمـيم، والشقيق، فربما بذل أحدهم نفسه دون جاره، ووقى ماله بماله، وقُتل دون حميمـة، ومنهم كعب بن مَامَة[٥]، وكان إذا جاوره جار فمات بعض لحمتـه[٦]، وداه[٧]، وإذا مات له بعير، أو شاه أعطاه مكان ذلك مثله"[٨].

---

(١) ديوان الحماسة، تأليف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، شرح أحمـد حسـن بسـبح، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ١٩٩٨م، ص٣١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢١.

(٣) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص٤٦ــ٤٩.

(٤) **بلبانها:** بأصولها، وأصل اللبان الرضاع، يقال هو وأخوه بلبان أمه. (المعجم الوجيز، مادة ل ب ن، ص٥٥٠).

(٥) **كعب بن مَامَة:** من أجواد العرب المشهورين، وعده أبو عبيدة واحدًا من ثلاثة هـم أجـواد العرب. (فضل العرب، ج١، الهامش).

(٦) **لحمته:** اللحمة القرابة. (مختار الصحاح، مادة ل ح م، ص٥٩٤).

(٧) **وداه:** دفع ديته، أي المال الذي هو بدل النفس. (المصباح المنير، مادة وَدَي، ص٦٥٤).

(٨) فضل العرب، ج١، ص٦٣، وانظر أيضًا: رسائل البلغاء، جمعها محمد كـرد علـي، ط دار الكتب العربية، ١٣٣١هـ ــ١٩١٣م، ص٢٨٢.

المبحث السادس

الطعن على العـــرب من خـــلال المرأة

قالت الشعوبية في هذا الطعن: إن نساء العرب سبايا مُرْدَفات على حقائب الإبـــل، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشي وقد وطئن كما توطأ الطريق المَهْيَع، فخـــر بذلك شاعر فقال:

وأَلحَـــقُ رَكْـــبَ المُرْدفـــاتِ عَشِـــيَّةً

فقيل له: ويحك! وأي فخر لك أن تلحق بالعشي، وقد نُكحن، وامتُهِنَّ؟.

وسبي ابنُ هَبولة الغسّاني امرأة الحارث بن عمرو الكندي، فحلقه الحـــارث فقتلـــه وارتجع المرأة، وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله، فما اشتملت النساء على مثله! فأوثقها بين فرسين ثم استحضرهما[١]، حتـــى قطعاهـــا؛ وقال في ذلك:

كلُّ أنثى وإن بَدا لـــك منهـــا أية الودّ عهـــدُها خيْتَعـــورُ[٢]

إنّ مَن غـــرّه النســـاءُ بـــودٍّ بعد هنـــدٍ لَجاهـــلٌ مغـــرور

وسبت بنو سليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب، فقال فيها عمرو:

أمِنْ ريْحانة الداعي الســـميعُ يُؤرّقُني وأصـــحابي هجـــوع

وفيها يقول:

إذا لم تستطعْ أمـــرًا فدعْـــه وجاوزْه إلى مـــا تســـتطيعُ[٣]

---

(١) **استحضرهما:** من قولهم استحضرت الفرس أي أعديته. **(لســـان العـــرب، ج٢، مـــادة ح ض ر، ص٩٠٨).**

(٢) **خيتعور:** امرأة خيتعور لا يدوم ودهـــا، والخيتعور السراب. (لسان العـــرب، ج٢، مـــادة خ ت ع ر، ص١١٠٠).

(٣) ينظر: العقد الفريد، ج٣، ص٣٥٣، ٣٥٤.

كما قالت الشعوبية أيضًا: "إنما كانت العرب في الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض

في غاراتهم، بلا عقد نكاح، ولا استبراء من طمث، فكيف يدري أحدهم من أبوه؟"(١).

كذلك استغلت الشعوبية قتل بعض القبائل العربية لبناتهم، وطعنت عليهم من خلاله، فقال كسرى ملك الفرس للنعمان بن المنذر حين ناظره في شأن العرب: "ولم أر للعرب شيئًا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة. ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة"(٢).

ومن طعنهم على المرأة العربية أيضًا أنهم "فخروا بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لسارة، وأنّ إسماعيل لأمةٍ تسمى هاجر، وقال شاعرهم:

في بلْدةٍ لم تصل عُكْلٌ بها طنبًا ولا خِباءً، ولا عَكٌّ وهَمْدانُ
ولا لجرْم ولا بهراء من وطنٍ لكنها لبني الأحرار أوطانُ
أرض يُبنّى بها كسرى مساكنَه فما بها من بني اللَّخْناءِ إنسانُ

فبنو الأحرار عندهم: العجم، وبنو اللخناء عندهم: العرب؛ لأنهم من ولد هاجر وهي أمة"(٣).

الرد على هذا الطعن:

وقد رد الألوسي على هذا الطعن بقوله: إن جميع ما ذكرته الشعوبية في شأن مناكح العرب، وما أوردوه في الطعن على أنسابهم بما كانوا يتعاطونه في الغارات من سَبْي النساء واسترقاقهم، ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك، لا أصل له، وكتب التاريخ صادحة بتبرئتهم مما رماهم به خصومهم وأعداؤهم، وقد نطق

---

(١) بلوغ الأرب، ج١، ص١٧٣؛ العقد الفريد، ج٣، ص٣٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٨.
(٣) العقد الفريد، ج٣، ص٣٥٧.

الشعر الجاهلي بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بأنسابهم، وحفظ حريمهم، والذب عن أحسابهم وعشائرهم، ولم يكن من مذاهب العرب، وعوائدها قديمًا وحديثًا التعرض بسوء للنساء والأهل في الغارات والمنازعات، بل كان ذلك من أكبر الكبائر لديهم.

وما روته الشعوبية من الأبيات الشعرية إن صحت عن قائلها، وأنه كان من صميم العرب، فلا مطعن فيه، فإن ما يصدر عن شخص من قوم لا يسوغ عند ذوي العقول والآراء الصائبة أن يؤاخذ به جميع أفراد نوعه ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[1]. ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أفراد العرب معصوم من كل خطيئة وعيب، وأن كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم في جميع صفات الفضائل هيهات ذلك، فإن هذا بديهي البطلان. ألا ترى أن جميع أهل العقول السليمة قائلون بفضل جنس الرجال على جنس النساء مع أن بعض أفرادهن لا يعادلهن في الكمالات النفسية، والفضائل الإنسانية ألوف مؤلفة من الرجال العارين عن ذلك، وما أحسن قول الشاعر[2]:

ولو كانَ النساءُ كمن فَقَدْنا لفُضّلَتِ النّساءُ على الرّجالِ

فما كان من شخص أو شخصين من أمة العرب من المنكر لا يزري بعلو شأنهم ورفيع مجدهم، لاسيما إذا كان ذلك المنكر ليس بمقطوع الصحة، أو أنه مما له وجه، فإن السبي عند غزو بعضهم بعضًا كان في حكم الرقيق بمقتضى ديانتهم وعوائدهم، ووطئ ملك اليمين من غير عقد ليس بزنى عند كافة أهل الأديان، ثم

---

(1) سورة الأنعام: من الآية (١٦٤)، والإسراء: من الآية (١٥)، وفاطر: من الآية (١٨)، والزمر: من الآية (٧).

(2) البيت للمتنبي في ديوانه خلال قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة ويعزيه بها في سنة سبع وثلاثين وثلاث مائة. ينظر: ديوان المتنبي، ط دار بيروت، بيروت ــ لبنان، ١٤٠٣هـ ــ١٩٨٣م، ص٢٦٧.

نقول أيّ أمة من الأمم غير العرب كانت معصومة من السبي والغارات، وهكذا ديدن الخليقة من أولها إلى آخرها، ولو ذكرنا حال مناكح سائر الأمم غير العرب في الأيام الخالية لأسود وجه القرطاس، وما قالته الشعوبية من أن العرب كانوا يقربون النساء من غير استبراء من طمث فهو بهتان عظيم، وشعر العرب وتواريخهم ناطقة بخلافه، وأنهم كانوا يحترزون عن الجماع في الحيض[١].

وقد رد القاضي أبو حامد المَرْوَرُّوذِيّ[٢]، على هذا الطعن حين أشار إلى هؤلاء الشعوبية، وما يعتقدونه من إشاعة النساء بين المزدكية والخرمية، فقال: "لو كانت الفضائل كلها بعقْدِها وسِمْطها، ونظمِها ونثرها، مجموعةً للفُرس، ومصبوبةً على أرؤسهم، ومعلَّقةً بآذانهم، وطالعة من جباههم، لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنها، وأن يخرسوا عن دِقِّها وجلِّها، مع إباحتهم الأمهات والأخوات والبنات، فإن هذا شيء كريهٌ بالطباع، وضعيف بالسَّماع، ومردود عند كل ذي فِطرة سليمة، ومستبشع في نفس كل من له جِبِلّة معتدلة. قال: ومن تمام طغيانهم، وشدة بهتانهم، أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى، وبشريعة أتت من عند الله، والله تعالى حرّم الخبائث من المطعومات، فكيف حَلَّلَ الخبائث من المنكوحات؟"[٣].

وقد عُرف عن العرب بأنهم أغير من غيرهم، لذا كانوا أشدَّ الناس حاجةً إلى حفظِ الأنساب، ولذلك اعتنوا بضبطها غاية الاعتناء، لما امتنعوا عن سلطان يقهرهم،

---

(١) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٧٤، ١٧٥.

(٢) هو القاضي أبو حامد أحمد بن بشر البصري المَروَرُّوذِيّ، كان عالمًا بفنون العلوم الدينية والأدبية، قال فيه أبو حيان: "كان بحرًا يتدفق حفظًا للسير، وقيامًا بالأخبار، واستنباطًا للمعاني، وثباتًا على الجدل، وصبرًا في الخصام". وكان يقول فيه: "إنه أنبل من رأيته في عمري"، توفى سنة (٣٦٢هـ)، وهو شيخ أبو حيان التوحيدي، من تصانيفه (الجامع في فقه الشافعية)، و(شرح مختصر المزني). ينظر: الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٩٠ (الهامش)؛ والأعلام للزركلي، ج١، ص١٠٤.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٩٠.

ويكف الأذى عنهم ليكونوا به متظافرين على من ناوأهم متناصرين على من شاقهم وعاداهم حتى بلغوا بألفة الأنساب تناصرهم على القويّ، وتحكموا به حكم المتسلط المتشطط، فإن الرحم إذا تماست تعاطفت، والغيرة أساس ذلك، ومنها ينشأ ضبط الأنساب وحفظها، كما لا يخفى فإنها فوران الغضب حمايةً على إكرام الحُرَم،وجعل الله سبحانه هذه القوة في الإنسان سببًا لصيانة الماء، وحفظًا للأنساب، ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها، وقد وصل العرب في الغيرة إلى أن جاوزوا الحد، حتى كانوا يئدون البنات مخافة لحوق العار بهم من أجلهنّ، وقد أبطل الإسلام هذا الفعل. وأول قبيلة وأدت من العرب ربيعة، وذلك أنهم أُغيرَ عليهم، فنَبِهْتْ بنت لأمير لهم، فاستردّها بعد الصلح، فخيرّت رضى منها بين أبيها، ومن هي عنده، فاختارت من هي عنده، وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرةً منهم، ومخافةَ أن يقع لهم بعد ذلك مثل ما وقع وشاع في العرب غيرهم.

ومن نخوة العرب وغيرتهم أنهم يكنون عن حرائر النساء بالبيض، وقد جاء القرآن العزيز بذلك، فقال سبحانه: ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾[١]، وقال امرؤ القيس[٢]:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غير معجَلِ[٣]

ومن نخوة العرب وغيرتهم أنه كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال، ثم العضاريط[١]، والرعاء، ثُمَّ النساء إذا صدرت كل فرقة عنه فكنَّ يغسلن أنفسهن وثيابهن، ويتطهرن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر عن الماء حتى تصدر

---

(١) سورة الصافات الآية (٤٩).

(٢) ديوان امرئ القيس، تحقيق: الأستاذ/ مصطفى عبدالشافي، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٤م، ص١١٤.

(٣) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٤٠.

(١) **العضاريط:** جمع عضروط وهو الخادم على طعام بطنه والأجير. (بلوغ الأرب، ج١، ص١٤٣ الهامش).

النساء فهو الغاية في الذل. وإلى ذلك أشارت (كبشة[١]) أخت عمرو بن معدي كرب، بقولها من أبيات[٢]:

ولا تَردِوا إلا فُضُولَ نسائِكُمْ إذا ارتَمَلَتْ أعقابُهُنَّ من الدَّمِ[٣]

كما رد النعمان بن المنذر على كسرى ملك الفرس حين طعن على العرب بقتل أولادهم، فقال النعمان: "وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار، وغيرة من الأزواج"[٤].

مثلما فعلت قبيلة بنو تميم حيث يُحكى أن السبب في وأدهم البنات "أنهم منعوا الملك ضربة الإتاوة التي كانت عليهم فجرد إليهم النعمان أخاه الريان مع دَوْسر "إحدى كتائبه"، وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نَعمهم وسبى ذراريهم، فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر وكلموه في الذراري فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه، فاختَلَفْنَ في الخيار، وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تُولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتًا. وبصنيع قيس بن عاصم وإحيائه هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات"[٥].

---

(١) **كبشة:** هي كبشة بنت معدي كرب الزبيدي: شاعرة صاحبية، أورد لها أبو تمام في الحماسة أبياتًا ترثي بها أخًا لها اسمه عبدالله وتحرض أخاها الثاني عمرو بن معدي كرب على الأخذ بثأره، وقيل: أراد عمرو أخذ الدية فقالت كبشة هذه الأبيات، وكان ذلك في الجاهلية، وأدركت الإسلام، ووفدت على النبي ﷺ مع ابنها معاوية بن حديج الصحابي المعروف وهي عمة الأشعث بن قيس، توفيت نحو ٢٠هـ ـ ٦٤٠م. (الأعلام، ج٥، ص٢١٨، ٢١٩).

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام، ص٣٩.

(٣) ينظر: بلوغ لأرب، ج١، ص١٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص١٥.

(٥) السابق، ج٣، ص٤٢، ٤٣.

وبذلك نصل إلى أن الوأد لم يكن في كل القبائل العربية، وإنما كان في قبائل بعينها، ولها أسبابها في ذلك، ورغم هذا حرم الإسلام من خلال القرآن الكريم هذا الفعل الشنيع.

وكتب التاريخ تؤكد احترام العربي للمرأة واعتزازه بها، فكان العربي يرفض تزويج المرأة لغير العربي حتى ولو كان ملكًا أو أميرًا، وقد يُقتل من أجل ذلك، فقد روي أن النعمان بن المنذر كان قد قتل عدي بن زيد العبادي، وكان يكتب لكسرى أبرويز بالعربية، ويترجم له إذا وفد عليه زعماء العرب، فلما قُتل صار زيد بن عدي مكان أبيه، فذكر لأبرويز جمال نساء آل المنذر، ووصفهن له، فكتب إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته، فلما قرأ النعمان كتابه، قال للرسول ــ وهو زيد بن عدي ــ: يا زيد أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات؟! فقال زيد: إنما أراد الملك إكرامك بصهرك، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله، وسأحسن ذلك عنده، وأعذرك بما يقبله، فقال له النعمان: فافعل، فقد تعرف ما على العرب من تزويج العجم من الغضاضة والشناعة، فلما انصرف إلى كسرى أخبره أنه رغب عنه، فأدى إليه قوله في مها السواد على أقبح الوجوه، وأوجده عليه، وقال: ما المها؟ فقال: البقر، فأخذ عليه، وقال: رُبَّ عبد قد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا، فلما بلغت كلمته إلى النعمان تخوَّفه، فخرج هاربًا حتى صار إلى طيئ، لصهر كان له فيهم، ثم خرج من عندهم حتى أتي بني رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس، فقالوا له: أقم معنا فإنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا، فجزَّاهم الخيرَ، ورحل عنهم يريد كسرى، ليرى فيه رأيه، وأقبل النعمان حتى أتي المدائن، فصَفَّ له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهم المصبغات صفين، فلما صار النعمان بينهن قلن له: أما فينا للملك غني عن بقر السواد!؟ فعلم النعمان أنه غير ناج منه، ولقيه زيد بن عدي، فقال له النعمان: أنت فعلت هذا بي، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك، فقال له زيد: امض نُعيمُ، فقد أخَّبت لك أخيَّةً لا يقطعها المهر الأرنُ، وأمر كسرى بالنعمان، فحبس بساباط المدائن، ثم أمر به

فرمي تحت أرجلُ الفيلة، وقال بعضهم: بل مات في محبسه بساباط، وقد ذكرت ذلك الشعراء فأكثرت، فمن ذلك قول الأعشى[١] وأجاد:

ولا الملكُ النعمانُ يوم لَقِيتَهُ ... بِأَمَّتِه يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيُأْفِقُ

وَيُجْبَي إليهِ السَّيْلَحُونَ وَدُونَهَا ... صَرِيفُونَ في أنهارِهَا والخَوَرْنَقُ

ويقسمُ أمرَ الناس يومًا وليلةً ... وهم ساكِتُون والمنيَّةُ تنطقُ

فَذَاك، وما أَنْجَى من الموتِ ربَّهُ ... بسَابَاط حتى مَاتَ وهو مُحَزْرَقُ[٢]

وتذكر كتب التاريخ أيضًا، أن أبا جعفر المنصور حين قتل أبا مسلم الخرساني، قد ذكر له قبل قتله الأسباب، وذكر له منها؛ أنه تجرأ على خِطبة أخته، فمما حُكي في أمر قتله أن أبا مسلم تقدم إلى مَضْرب المنصور، وهو على دجلة برومية المدائن، فدخل وجلس تحت الشراع ــ وقيل الرواق ــ فأخبر أن المنصور يتوضأ للصلاة، وكان المنصور قد تقدم إلى صاحب حَرَسِه عثمان بن نهيك في عدة فيهم شبيب بن رواح المروروذي، وأبو حنيفة حَرْبُ بن قيس، وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي كان وراء أبي مسلم، وأمرهم أنه إذا عاتبه وظهر صوته لا يظهروا، فإذا صفق بيد على يد فليظهروا، وليضربوا عنقه، وما أدركوا منه بسيوفهم، وجلس المنصور، فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه، فرد عليه، وأذن له بالجلوس، وحادثه ساعة، ثم أقبل يعاتبه ويقول: فعلتَ وفعلتَ، فقال أبو مسلم: ليس يقال هذا لي بعد بلائي، وما كان مني، فقال له: يا ابن الخبيثة، وإنما فعلت ذلك بِجَدِّنَا وحُظُوظنا، ولو كان مكانك أمة سوداء لأَجْزَتْ، أَلَست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك، والكاتب إليَّ تخطب آسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن العباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبًا، فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها، ويعتذر إليه،

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ــ ميمون بن قيس ــ شرح: د. محمد حسين، ط المطبعة النموذجية، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز (بدون تاريخ) ص٢١٩.

(٢) ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مراجعة: كمال حسن مرعي، ج٢، ط المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٥م، ص٨٠، ٨١.

فقال المنصور، وهو آخر ما كلمه به: قتلني الله إن لم أقتلك، وذكر له قتله لسليمان بن كثير، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم، فبذره عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبي مسلم، وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله، واعتورته السيوف، فخلطت أجزاؤه، وأتوا عليه، والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم، وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال: استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك، قال: لا أبقاني الله أبدًا إن أبقيتك! وأي عدو أعدي لي منك؟[١]

وقد رد عليهم ابن قتيبة حين طعنوا على السيدة هاجر أم سيدنا إسماعيل عليه السلام، وقالوا (ابن اللخناء) فقال: "اللخناء عند العرب الأَمَةُ. فالويل الطويل لهؤلاء، والبعُد والثبور من هذه العداوة لأولياء الله، والأنباز القبيحة لصفوة الله. وقد غلطوا في التأويل على اللغة، وليس كل أَمَةٍ عند العرب لخناء، فاللخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل، وسقيها، وجمع الحطب وحمله، واستقاء الماء والحلب، وأشباه ذلك من الخدمة، كما يقال: الأمة الوكعاء[٢]، وليس كل أمة وكعاء، وإنما قيل: لخناء، لنتن ريحها، ويقال: لخن السقاء يلخن لخناً، إذا تغير ريحه وأنتن.

وأمّا مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل دفر[٣]، وارتضاها للخليل فراشًا، وللطيبين إسماعيل، ومحمد عليهما الصلاة والسلام أُمًا، وجعلهما لها سلالة، فهل يجوز لملحد فضلاً عن مسلم أن يطلق عليها اللخن، ولو لم يكن إلا أن ملك القبط متع بها سارة، وكانت أنفس إمائه عنده، وأحظاهن لديه، لقد كان في ذلك دليل على أنها لم تكن من الإماء اللُّخْن، ولو جاز أن يُطلق على كل أمة لخناء لجاز أن يقال لكل شريف ولدته أَمَةٌ: هذا ابن اللخناء، كما يقال: هذا ابن الأمة. ولقد

---

(١) ينظر: مروج الذهب، ج٣، ص٢٤٢، ٢٤٣.
(٢) **الوكعاء:** الوكع: ميلان في صدر القدم نحو الخنصر، وربما كان في إبهام اليد، وأكثر ما يكون ذلك في الإماء اللاتي يكددن في العمل. (المصباح المنير، مادة و ك ع، ص٦٧٠).
(٣) **دفر:** أي نتن الريح وخبثها. (المصباح المنير، مادة د ف ر، ص١٩٦).

ولدت الإماء الخلفاء، والخيار، والأبرار مثل علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب.

وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الثلاثة، ففاتوا أهل المدينة فقهًا وورعًا، فرغب الناس في السراري"[١].

(١) ينظر: فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص٤٧، ٤٨.

المبحث السابع

الطعن على العرب في أنسابهم

عُرف عن العرب بأنهم كانوا يعتزون بأنسابهم؛ ولذلك فإن الشعوبية هاجمت ما لدى العرب منها، وما يعتزون به من سلاسلها، وادعوا أنها أنساب مدخولة منحولة، وذهبوا في مقابل ذلك إلى انتحال أنساب وهمية للعجم ليفخروا بها[١]. فقالت الشعوبية في ذلك: هل تعدون الفخر كله أن يكون مُلكًا أو نبوة؟ فإن زعمتم أنه ملك، فإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة، والنماردة، والعمالقة، والأكاسرة، والقياصرة.

وأن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة، فإن منا الأنبياء، والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة: هودًا، وصالحًا، وإسماعيل، ومحمدًا، ومنا المصطفون من العالمين: آدم ونوح، وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر، فنحن الأصل، وأنتم الفرع، وإنما أنتم غصن من أغصاننا، فقولوا بعد هذا ما شئتم وادّعوا[٢].

وتناول ابن قتيبة طعنهم على العرب في هذا الشأن فقال: "وأعجب من هذا ادعاؤهم إلى إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وفخرهما على العرب بأنه لسارة الحرة، وإن إسماعيل أبا العرب لهاجر، وهي أَمَة، فبنو الأحرار عندهم العجم من ولد إسحاق، وإسحاق لسارة، وهي حرة، وبنو للخناء عندهم العرب؛ لأنهم من ولد إسماعيل، وإسماعيل لهاجر، وهي أمة"[٣].

---

(١) ينظر: الجذور التاريخية للشعوبية، ص٦٩.
(٢) ينظر: العقد الفريد، ج٣، ص٣٥٢، ٣٥٣.
(٣) فضل العرب والتنبيه على علومها، ج١، ص٤٦، ٤٧.

وبناءً على أدعاء الشعوبية بأن الفرس أحرار والعرب عبيد افتخرت بالشخصيات الإيرانية كأبي سلمة الخلال، وأبي مسلم الخراساني، والبرامكة، وبني سهل، وآل طاهر بن الحسين، وامتدحت أصولهم الإيرانية متعرضة بالعرب وأصولهم(١).

وكذلك من خلال هذا الطعن تحدثت الشعوبية عن نقاء أصولهم بصورة عنصرية غريبة، فقال أبو عامر بن غرسية الشعوبي من خلال رسالة يخاطب بها أبا عبدالله بن الحداد يعاتبه فيها، ويفضل العجم على العرب، فقال: "إنهم الصُّهب الشُهب، ليسوا بعُرْب ذَوِي أينُق جُرب، أساورة أكاسرة، مُجُد، نُجُد، بُهَم(٢)، لا رُعاة شويهاتٍ ولا بَهَم(٣)، شُغلوا بالماذيِّ والمُرَّان، عن رَعي البُعران، وبجلب العِزَّ عن حلب المَعْز، جبابرة، قياصرة، ذوو المغافر(٤)، والدُّروع، أرومة رومية، وجُرثومة أصفرية:

نَمَتْهُم ذوو الأحساب والمجدِ والعُلي من الصُّهب لا راعُو غضًا وأفانِ

من القُدُم، المُلْس الأُدُم، لم تُعرِقْ فيهم الأقباط، ولا الأنباط، حسبٌ حرِيّ، ونَسَبٌ سرِي، أمُّكم لأمِّنا كانت أمَة"(٥).

الرد على هذا الطعن:

رد الألوسي على زعمهم بأن منهم جميع الملوك والأنبياء، وهذا شرف لنسبهم، فقال: إن ما قالته الشعوبية واقع في غير موقعه، وقائم في غير محله، فإن المدعي

---

(١) ينظر: الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، ص١٨٩.
(٢) **بُهَمٌ** : جمع بُهْمة وهو الشجاع الفارس الذي لا يُدري من أين يؤتي له من شدة بأسه. (لسان العرب، ج١، مادة ب هـ م، ص٣٧٧).
(٣) **بَهَم** : جمع بَهْمة وهو الصغير من أولاد الغنم الضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها، الذكر والأنثى في ذلك سواء. (لسان العرب، ج١، مادة ب هـ م، ص٣٧٦).
(٤) **المغافر:** جمع مِغْفَرُ وهو ما يلبس تحت البيضة. (المصباح المنير، مادة غ ف ر، ص٤٤٩).
(٥) نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون، المجموعة الثالثة، ط مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ــ١٩٧٣م، ص٢٤٧.

إنما هو فضيلة الجنس فيما هو مناط الفضيلة بين أنواع بني آدم، وهو أن سبب فضل جنس العرب ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وليس المدعي أن الفضيلة بنبوّة حتى يقال إن أنبياء غير العرب أكثر من أنبيائهم، فإن جميع الأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي، الرسل منهم ثلاثمائة نبي وخمسة عشر نبيًا، ومنهم خمسة عبرانيون: آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، وخمسة من العرب: هود، وصالح، وإسماعيل، وشعيب، ومحمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

وقد بعث الله إلى أهل الرسّ ــ والرس: البئر ــ نبيًا منهم يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه، فأوحى الله تعالى إلى نبي كان مع بختنصَّر يقال له أرميا بن برخيا: مُرْ بُختنصر يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم، وخالد بن سنان كان أيضًا من أنبياء العرب، فقد قال رسول الله ﷺ في شأنه: ذاك نبي أضاعه قومه، وباقي الأنبياء من سائر الأمم المختلفة.

فليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم لمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفسًا ونسبًا.

مع أنه لو ادعى خصوم الشعوبية أن منشأ الفضيلة ذلك لأمكنهم أن يقولوا إن أنبياء العرب على قلتهم يساوون غيرهم من الأنبياء والرسل في الفضل، أو يرجحونهم، وليس ذلك بِبِدْع، فإن التفاوت ما بين إنسان وإنسان، ظاهر لدى العيان؛ فإنك قد ترى واحدًا كعشرة، وعشرة كمائة، بل واحدًا كمائة وعشرة أخرى هَدَرَة[1] دون واحد.

---

(1) **هَدَرَة** : الهدر الساقط الذي ليس له كرامة، ويقال ذهب دمه هدرًا، أي لم يقتص له، ولا أخذت عنه دية. (المعجم الوجيز، مادة ه د ر، ص٦٤٦).

وقال قال الشاعر[١]:

ولم أَرَ أمثالَ الرِّجــالِ تَفاوتَــتْ إلى الفَضْل حتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِواحِدِ

بل نرى واحدًا كعشرة آلاف، ونرى عشرة آلاف دون واحد، بل لو قيل قد نــرى واحدًا كعالم وعالمًا كواحد لجاز، كما قال رسول الله ﷺ: وزنت بأمتي فرجحتهم[٢].

وعلى هذا قول الشاعر[٣]:

ليس علــى الله بمسْــتنْكَرٍ أنْ يَجْمعَ العالَم في واحــدِ

وليس المدعي أيضًا أن الفضيلة بملك وثروة، وكثرة عَدد، وعُدد، فإنها ليست أيضًا مما تستوجب الفضيلة، وتقتضي الصفات الجميلة. قال ابن الراوندي الملحد الزنديق المشهور:

سبحان من وضع الأشياء موضعها وفــرق العــز والإذلال تفريقــا
كم عاقل عاقــل أعيــت مذاهبــه وجاهلٍ جاهــلٍ تلقــاه مرزوقًــا
هذا الذي تــرك الأوهــام حــائرة وصير العالم النحرير زنــديقًا[٤]

وقد رد ابن قتيبة على فخرهم على العرب بآدم، فقال: "ومن عجب أمرهم فخــرهم على العرب بآدم، يقول النبي ﷺ لا تفضلوني عليه فإنما أنا حسنة من حسناته[٥]، ثم

---

(١) البيت للمتنبي في ديوانه من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وابنه أبا الفتح (ديوان المتنبــي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، المجلد الثاني، ط دار المعارف، الطبعة الثالثة) (بــدون تــاريخ)، ص٦٢٥.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف: د. أحمد معبد عبدالكريم، ط دار المنهاج (بدون تاريخ)، ج٣، مسند رقم ٢٦ (مسند عبدالله بن عمر بن الخطاب) حديث رقم ٥٥٧٠، ص١١١٨.

(٣) البيت لأبي نواس في ديوانه، شرح محمود أفندي واصف، ص٨٧، من قصيدة يمــدح بهــا الفضل بن الربيع.

(٤) ينظر: بلوغ الأرب، ج١، ص١٧٥، ١٧٦.

(٥) سنن أبي داود، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ج٧، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، عبد اللطيف حرز الله، ط دار الرسالة العالميــة،

بالأنبياء، وأنهم من العجم إلا أربعة نفر: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ . وفي هذا القول وضع الفخر على غير أساس، ومن أسَّسَ بنيانه على الباطل، والغرور أوشك أن يتداعى، وأن يَخرَّ، وظلم للعرب فاحش.

ومن عجيب أمرهم ادعاؤهم آدم، وكأن العرب ليسوا من ولده، وانتحالهم موسى، وعيسى، وزكريا، ويحيى وأشباههم من بني إسرائيل، وليس بين فارس وبني إسرائيل نسب"(١).

كما رد ابن قتيبة على ادعائهم النسب إلى إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، فقال: والنُّساب لا يعرفون لأهل فارس، ولا للنبط في إسحاق بن إبراهيم حظًّا؛ لأن إسحاق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح، وتارح هو آزر، ورفقا بنت عمه، ولدت له عيصو ويعقوب، توأم في بطن واحد، فيعقوب هو إسرائيل الذي ولد الأسباط كلهم، وكانوا أثنى عشر رجلاً، وأولادهم جميعًا يُدعون بني إسرائيل، وهم أهلُ الكتاب ليس لهؤلاء فيهم سبب ولا نسب، وعيصو هو أبو الروم، وكان الروم رجلاً أصفر شديد الصفرة في بياض، ومن أجل ذلك سميت الروم بني الأصفر.

قالوا: وكانت أم الروم بنت إسماعيل بن إبراهيم، وولد من الروم خمسة نفر، فكل من بأرض الروم من نسل هؤلاء الرهط.

قالوا: ولمّا سبق يعقوب إلى دعوة إسحاق فصارت النبوة في ولده دعا إسحاق لعيصو بالنماء والكثرة، فالروم كلها من ولده، وبعض الناس يزعم أيضًا أن الأسبان من ولده.

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ٢٠٠٩م، كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء، حديث رقم ٤٦٦٨، ورقم ٤٦٧١، ص٦١، ٦٢.

(١) فضل العرب، ج١، ص٥١.

وقالوا: النبط بن ساروح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، ويقال: إنه ابن ماش بن سام بن نوح.

قالوا: وأهل فارس من ولد لاوذ بن أرم بن سام بن نوح، وكان كثير الولد فنزل أرض فارس، فأجناس الفرس كلهم من ولده، فليس بين هؤلاء وبين إسحاق بن إبراهيم، على ما ذكر النسابون، نسب يجمعهم إلا سام بن نوح، والناس يجتمعون في ولادة شيث بن آدم، ثم في ولادة نوح، ثم يتشعبون، فولد نوح أربعةُ نفر: سام، وحام، ويافس، ويام، فأما يام فهلك بالطوفان فلا عقب له، وهو الذي قال له أبوه: ﴿**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾[١]، وأما حام فإن أباه لعنه، ودعا عليه بأن يكون عبدًا لأخويه، فخملت ذريته، وسقطت فيه، فهم النوبة، وفزان، والزغاوة[٢]، وأجناس السودان، والسند، والقبط.

وأما يافث، فإن أباه دعا له بالنماء والكثرة، فولد الصقالب، والترك، ويأجوج ومأجوج[٣]، وأمما عدد الرمل والحصا في مشارق الأرض.

فأما سام فبارك عليه، فأشراف الناس من ولده فهم العماليق، ومنهم الجبابرة، وفراعنة مصر، وملوك فارس.

ومن ولد سام الأنبياء جميعًا بعد نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ومن بعده إلى نبينا محمد ﷺ .

---

(١) سورة هود: من الآية (٤٢).

(٢) **الزغاوة :** بلد في جنوبي إفريقية بالمغرب. (فضل العرب، ج١، ص٥٠ الهامش).

(٣) **يأجوج ومأجوج:** خلق من الناس يقال إنهم خمس وعشرون قبيلة، ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهم من نسل يافث بن نوح، ويقال إنهم أمة لها أربعمائة أمير، يتصفون بالقوة والقسوة. (فضل العرب، ج١، ص٥٠، الهامش).

فالعرب وفارس يتساوون في هذه الجملة، وتفضلها العرب بعدها بأنها من ولد إسماعيل بن إبراهيم، فهي أدنى من خليل الله دناوة، وأمس به رحمًا[١].

وقال ابن قتيبة متابعًا الرد على هؤلاء الشعوبية: العرب بنو إسماعيل بن إبراهيم بإجماع الناس، فهم بنو أخي إسحاق بن إبراهيم، وأولى به وأحق بشرفه، وأولى بموسى، وعيسى، وداود، وسليمان، وجميع الأنبياء من ولده. وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[٢]، فآل إبراهيم هم ولدُ إسحاق، وولد إسماعيل، ثم قال الله تعالى: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ**﴾[٣]، فأعلمنا أن العرب وبني إسرائيل شيء واحد في النسب.

وفيما أوحي الله إلى موسى: "إني سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك أَجعلُ كلامي على فيه"، يريد أنه يقيم لهم من العرب نبيًا مثل موسى، يعني نبينا محمد ﷺ ، وهذا عَلَمٌ من أعلامه، وحجَّةٌ من حُججنا على أهل الكتاب من كتبهم.

فإن قالوا في ذلك: إنه يقيم لهم من بني إسرائيل نبيًا مثل موسى، وقالوا: إن بني إسرائيل بعضهم إخوة بعض أكذبهم النظر؛ لأنه لو أراد ذلك لقال لهم: من أنفسهم، ومنهم، كما أن رجلاً لو أراد أن يبعث رسولاً من خندف لم يقل سأبعث رسولاً من إخوة خندف. فإن كان دَفْعهُم ولدَ إسماعيل عن تشابك نسبهم بولد إسحاق لنزول إسماعيل الحرم ونكاحه من جُرهم، فإن الديار قد تتناءى، والمحال قد تتباين، والرجلُ قد ينكحُ في البعيد، وقد يولد له من الإماء، ولا تنقطع الأرحام والأنساب، وإن كان إسماعيل نطق بالعربية فليس اختلاف الناس في الألسنة يخرجهم عن نسب آبائهم، وإخوانهم، وعشائرهم، فهؤلاء أهل السريانية قد خالفوا في اللسان أهل

---

(١) ينظر: فضل العرب، ج١، ص٤٩ــ٥١.
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).
(٣) سورة آل عمران: من الآية (٣٤).

العبرانية، وهذه الروم كفرت بالله، ولا شيء أقطع للعصمة من الكفر، وتكلمت بالرومية، ورغبت عن لسان آبائها، وليس ذلك بمخرجها عن ولادة إسحاق بن إبراهيم، على أن إسماعيل لم يكن أول من نطق بالعربية، وإنما تعلمها، وإنما أصل العربية لليمن؛ لأنهم من ولد يعرب بن قحطان، وكان يعرب أول من تكلم بالعربية[١].

وقد رد ابن خلدون على فخرهم ببعض الشخصيات ومدحهم لأصولهم الإيرانية حين تحدث على أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع، إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم، فقال: إن الشرب بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية، فإذا اصطنع أهل العصبية قومًا من غير نسبهم، أو استرقوا العُبْدَانَ والموالي والتحموا به ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية، ولبسوا جلدتها كأنها عصبيتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها، كما قال ﷺ : "مولي القوم من أنفسهم"[٢]، وسواءٌ كان مولي رقٍّ، أو مولي اصطناع وحلفٍ، وليس نسبُ ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب.

وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر، وفقدانه لأهل عصبيتها، فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم، فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية، كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم، بل يكون أدون منهم على كل حال.

وهذا شأن الموالي في الدول، والخَدَمةِ كلِّهم، فإنهم إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها، وتعدد الآباء في ولايتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني

---

(١) ينظر: فضل العرب، ج١، ص٥٢، ٥٣.
(٢) صحيح البخاري، الجزء العاشر، كتاب الفرائض، باب مولي القوم من أنفسهم وابن الأخت منهم، رقم ٦٠٣٦، ص٢٦٤.

العباس، وإلى بني برمك من قبلهم، وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف، وبنو المجد والأصالة بالرسوخ في ولاء الدولة، فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتًا وشرفًا بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس.

وكذا موالي كل دولة وخدمها، إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها، والأصالة في اصطناعها، ويضمحل نسبهُ الأقدمُ من غير نسبها، ويبقى مُلغيً لا عبرةَ به في أصالته ومجده، وإنما المعتبر نسبةُ ولائه واصطناعه، إذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف، فكان شرفه مشتقًا من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته، وإنما بني مجده نسبُ الولاء في الدولة، ولحمة الاصطناع فيها والتربية.

وقد يكون نسبه الأول في لحمةِ عَصَبِيَّته ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى، لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها، وانتفع بالثانية لوجودها، وهذا حال بني بَرْمَكَ، فقد كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بني العباس، لم يكن بالأول اعتبار، وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة، ولا حقيقة له[١].

وفي الرد على أبي عامر بن غرسية الشعوبي حين تحدث عن نقاء أصولهم، يقول (أبو يحيى بن سعدة): تجعل الخَصْلَ كلَّه للعرب، والفضل للنَّبع على الغَرَب. كفاك أن منهم آساد الله، وضِرَاء الله، وسُيوف الله، ولهم بيت الله، وفيهم رسول الله وعِترتُه أولياء الله، أئمة الهدى، وتتمة البأس والندى، وخيرُ من انتعل وارتدى، المؤثرون على أنفسهم ابن عمِّنا صدقًا، وهادينا ومرشدنا وسيدنا حقًا، سيد البشر،

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، ج١، ط دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٤م، ص٢٦٦، ٢٦٧.

وخاتم الرسل في محكم الزُّبُر، شفيع هذه الأمة، وحاديها إلى عليين في خير أمة، منتهى لَبِنة الأحساب، في الأحساب، الناطق بكلامه داعي أهل الجنة ومنادي الحساب، المتخير من ذؤابة لؤي بن غالب، الذي به نسخنا ملَّتكم، وكسَّرنا صُلُبَكم، وغوَّرنا قُلُبَكم، وطهَّرنا بِيَعكم(١).

وفي رد آخر على أبي عامر بن غرسية، يقول صاحبه(٢): لشدَّ ما استهواك أيها الشعوبي شيطانُك، والتفَّت على نَزْعك أشطانك، أدَرَيت، حين زَرَيت، أيَّ أديمٍ فريت، من الأُدْم، القُدم، ليسوا بصُهْبٍ خرْس، ولا بمجوس فرس.

أعِدْ نظرًا ففي الأمم العاديّة، والأجيال الجُرهُمِية، والجبابرة الطَّسْميَّة، والعماليق الغُلْب الإرَميَّة، ما يروعك، وفي مضر الحمراء، وأقيال عدنان، والتَّبابعة من يعرب بن قحطان، وأبرهَة ذي المنار، وعَمرٍ وذي الأذعار ما يوقظك من سِنَة هواك، ويُحجُرك عن باطل دعواك، أنوف شُمَّخ، وجبال رُسَّخٍ، ومَجد تليدٍ، وعزٍّ مشيدِ.

أرومتنا إسماعيلية نبويَّة، لا عيصوية أصفرية، حُرِم أبوكم بين ذويه، دعوة إبراهيم أبيه، سُلِخ لها من النبوة سلخَ الأديم، وعدل بها عن الحنفية ملّة إبراهيم(٣).

وقد رد على طعن ابن غرسية أيضًا (أبو الطيب بن منِّ الله القروي) فقال: أما كانت للعرب يد تشكرها، أو مِنَّة تذكرها. أمَا جبَرتْ نقيصتك، أما أيقظتْكَ من عِفلتك، ألم تُرَبِّك فيها وليدا، ألم تتَّخِذك لها تليدًا، أما أنطقَتْك بعد العجمة، ولا بأس عليك فقبلك قَصَروا الأُمم، وهَصَروا القمم، وهم أبكار الزمان، وأفكار الأوان، لهم العرب العاربة، ومنهم عادٌ الغالبة، ذات الأحلام السِّداد، والأجسام الشداد، وإرمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، ومنهم لقمانُ صاحب النسور، وباني

---

(١) ينظر: نوادر المخطوطات، المجموعات الثالثة، ص٢٩٠.
(٢) قيل أنه أبو يحيى بن مسعدة أيضًا. (نوادر المخطوطات، المجموعة الثالثة، ص٢٣٧).
(٣) ينظر: نوادر المخطوطات، المجموعة الثالثة، ص٢٩٤، ٢٩٥.

القُصور، ومنهم ثمودُ الذين جابوا الصخرَ بالواد، ونحتوا البيوتَ من الأطواد، والعمالقة والفراعنة، أنتم لهم أكَّارون، وحَرَبة عكَّارون، والتبابعة، والمرابعة، وذو القرنين صاحب السَّدِّ، وشِمر مخرِّب سَمرقند، قال الله تعالى: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ**﴾(١)، فضرب بهم مثلاً في الجلالة، ولهم الملوك من حمير، والمقاول من كهلان، ولاة، علاة، سماة، حماة، لهم العلو والعلاء، وفيهم العَباهلة والأذواء، فأين حصاتك من جبالهم، أم أين سفاتك من نبالهم، وعلامَ جثثتَ أصلك من الأنباط، وأزحت فَصْلك عن الأقباط، ما كان ذنبهم إليك، وجنايتهم عليك، حتى أخرجتهم عن جملة الأعاجم، ونفيتَهم عن جُملة أصحاب التراجم، بسبب كريمتهم، ومن أجل شريفتهم، لنسبَّ العربَ بولادةٍ من تعلَّق بك، وتشبَّث بنسبك. أمَا علمتَ أن أحمقَ أفعالِك، وأخرق أقوالك، سبُّك عدوَّك بولادةِ امرأةٍ من أهلك، أمَا هذا من جَهْلك(٢).

والعرب في الجاهلية كان لهم مزيد اعتناء بعلم الأنساب وضبطه ومعرفته، فهو أحد أسباب الألفة والتناصر، فحفظوا أنسابهم ليكونوا متظافرين به على خصومهم؛ لأن تعاطف الأرحام، وحمية الأقارب يبعثان على التناصر والألفة، ويمنعان من التخاذل والفرقة، أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقيًا من تسلط الغرباء الأجانب، وفي الإسلام قال رسول الله ﷺ : "إن الرحم إذا تماست تعاطفت(٣)(٤).

وقد عمل عمر بن الخطاب ﷺ على ربط مقدار العطاء بالسابقة في الإسلام، وبالقرابة من رسول الله ﷺ ، مما حفز الكتَّاب إلى الاهتمام بالأنساب. وقد بذل عدد من الكتَّاب العرب جهودًا لحفظ الأنساب العربية، فألف محمد بن سائب الكلبي (ت:١٤٦هـ)، وأبو يقظان

---

(١) سورة الدخان: من الآية (٣٧).
(٢) ينظر: نوادر المخطوطات، المجموعة الثالثة، ص٣١٤ـ٣١٦.
(٣) أدب الدين والدنيا، تأليف العالم القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، شرح محمد كريم راجح، ط دار اقرأ، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـــ١٩٨٥م، ص١٦٤.
(٤) ينظر: بلوغ الأرب، ج٣، ص١٨٢.

سحيم بن حفص (ت:١٩٠هـ)، وهشام بن محمد بن سائب الكلبي (ت:٢٠٦هـ)، ومصعب الزبيري (ت:٢٣٣هـ)، وأبو حسان الحسن بن عثمان الزيادي (ت:٢٤٣هـ)، والزبير بن البكار (ت:٢٥٦هـ) وعمر ابن شبة (ت:٢٦٢هـ)، وغيرهم كتبًا في أنساب العرب، فحفظوا تلك الأنساب، وجعلوها في مأمن من محاولات الطعن والتشويه التي ذهبت إليها الشعوبية، وألف البلاذري (ت:٢٧٩هـ) كتابه الشهير "أنساب الأشراف"، تناول فيه أنساب العرب، وعرض دورهم التاريخي، وأكد أن العرب مركز الثقل والقوة في سير التاريخ الإسلامي[١].

(١) ينظر: الشعوبية حركة مضادة للإسلام، ص١٨٩.

المبحث الثامن

الطعن على العرب من خـــلال الشعر

اضطلع بهذه المهمة من الشعوبيين حماد الراوية، وخلف الأحمر تلميـذه، فيقـول الشريف المرتضى في هذا الطعن عن حماد الرواية: "وكان حماد مشهورًا بالكـذب في الرواية وعمل الشعر، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين، ودسّه فـي أشـعارهم، حتى إن كثيرًا من الرواة قالوا: قد أفسد حماد الشعر؛ لأنه كان رجلاً يقـدِر علـى صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته، فاختلط لـذلك الصـحيح بالسقيم، وهذا الفعل منه، وإن لم يكن دالاً على الإلحاد فهو فسق، وتهاون بالكـذب في الرواية"(١).

ويقول المفضل الضبي في طعن حماد الراوية: "قد سُلّط على الشـعر مـن حمـاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا، فقيل له وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أو يلحـن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويُحْمَلُ ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟"(٢).

---

(١) أمالي المرتضى ــ غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسـوي العلوي ــ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج١، ط دار إحياء الكتب العربية، الطبعـة الأولـى ١٣٧٣هـ ــ١٩٥٤م، ص١٣٢.

(٢) معجم الأدباء، ج٦، ص٢٧١٠.

ويقول أبو الفرج الأصفهاني في طعن خلف الأحمر: أن أبا عبيدة قال: قال خلف: كنت آخذ من حماد الرواية الصحيح من أشعار العرب، وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ويُدخله في أشعارها(١).

ويقول المبرد: كان خلف يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه(٢).

كما قال الأصمعي في طعن خلف الأحمر: كان خلف مولي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، أعتقه وأعتق أبويه، وكانا فرغانيين، وكان أعلم الناس بالشعر، وكان شاعرًا، ووضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا، وعلى غيرهم عبثًا به، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة والكوفة(٣).

كما نجد الشعوبيين أيضًا يختلفون القصص اختلافًا بيِّنًا في شرح الأبيات، من ذلك ما رواه الهيثم بن عدي ــ وهو شعوبي ــ من أن رجلاً من تنوخ نزل بحي من بني عامر بن صعصعة، فجعل لا يحط شيئًا من متاعه إلا تمثل بهذا البيت:

لعمرك ما تَبْلَي سائر عامرٍ من اللؤم ما دامت عليها جلودها

فخرجت إليه جارية من الحي، فحادثته وآنسته، وسألته حتى أنس بها، ثم قالت: ممن أنت، قال: رجل من بني تميم، فقالت: أتعرف الذي يقول:

تميمٌ بِطُرْقِ اللؤم أهْدَي من القطا ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضَلّتِ

ولو أن برغوثًا على ظهر قَمْلة يكر على جَمْعَيْ تميم لولتِ

---

(١) ينظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدين الأسد، ط دار الجيل، بيروت، الطبعة السابعة ١٩٨٨م، ص٤٤١، ٤٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥١.

(٣) ينظر: مراتب النحويين تصنيف أبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط نهضة مصر، القاهرة (بدون تاريخ)، ص٤٦، ٤٧.

ذبحنـــا فســـمَّيْنا فـــتمَّ ذبيحُنـــا وما ذَبَحَتُ يومًا تمـــيمُ فســـمَّتِ

فقال: لا والله ما أنا منهم، قالت: ممن أنت؟ قال: رجل من عجل، قالـــت: أتعـــرف الذي يقول:

أرى الناس يُعْطُونَ الجزيل وإنما عطاء بني عجل ثلاث وأربَـــعُ
إذا ماتَ عِجْليٌّ بـــأرْضٍ فإنمـــا يُشَقُّ له منهـــا ذِراعٌ وإصْـــبَعُ

قال: لا والله ما أنا من عجل، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من بني يشكر، قالـــت: أتعرف الذي يقول:

إذا يشكريٌّ مَـــسَّ ثوبَـــكَ ثَوْبَـــه فلا تَذْكُرنَّ اللهَ حَتَّـــى تطَهّـــرَا

قال: لا والله ما أنا من يشكر، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من بني عبـــد القـــيس، قالت: أتعرف الذي يقول:

رأيتُ عبـــدَ القـــيس لاقـــتْ ذلاً إذا أصـــابوا بَصَـــلاً وخَـــلاً
ومالحًـــا مُصَـــنعًا قـــد طـــلا بـــاتوا يُســـلونَ النســـاءَ سَـــلاَّ
سَلَ النبيطِ القَصَبَ المْبَتلاّ

وظل الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة، وهي تروي له الأبيات في ذمها، حتى انتسب إلى بني أمية، فقالت: أتعرف الذي يقول:

وهـــي مـــن أميـــة بُنْيانُهَـــا فهـــانَ علـــى اللهِ فُقْـــدانُهَا
وكانَـــتْ أُمَيّـــةُ فيمـــا مَضَـــى جَـــرِئٌ علـــى اللهِ سُـــلْطانُها
فلا آلُ حربٍ أطاعُوا الرَّسُـــولَ ولـــم يَتَّـــقِ اللهَ مَرْوَانُهَـــا

قال: لا والله ما أنا من بني أمية، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل مـــن بنـــي هاشـــم، قالت: أتعرف الذي يقول:

بني هاشم عُودُوا إلى نَخَلاتكُـــم فقد صار هذا التمر صـــاعًا بـــدرهم
فإن قُلتمُ رَهْـــطُ النبـــي محمـــد فإن النصارى رهط عيسى ابن مريم

قال: لا والله ما أنا من بني هاشم، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من بني همدان، قالت أتعرف الذي يقول:

إذا همْدَانُ دارت يوم حَرْبٍ رحاها فَوْقَ هامات الرجال
رأيتهم يحثُّونَ المطايا سراعًا هاربين مِنَ القتال

قال: لا والله ما أنا من هَمْدان، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من قضاعة، قالت: أتعرفُ الذي يقول:

لا يَفْخَرنَّ قَضَاعيّ بأسْرَتِه فليْسَ مِن يَمَنٍ مَحْضًا ولا مُضر
مُذَبْذبين فلا قَحْطَانُ والدهم ولا نزار، فخلوهم إلى سَقَر

قال: لا والله ما أنا من قضاعة، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من شيبان، قالت: أتعرف الذي يقول:

شيبان قومٌ لهم عديدُ فكلهم مُقْرِف لئيم
ما فيهمُ ماجدُ حسيب ولا نجيب ولا كريم

قال: لا والله ما أنا من شيبان، قالت: فممن أنت؟ قال: رجل من بني نمير، قالت: أتعرف الذي يقول:

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغْتَ ولا كلابا
فلو وضعت فِقَاحُ بني نُمير على خَبَثِ الحديد إذًا لَذَابَا

فظلت كلما انتسب إلى قبيلة ذمتها، إلى أن قال لها: أنا من ولد الشيطان الرجيم، قالت: فلعنك الله ولعن أباك الشيطان معك، أفتعرف الذي يقول:

ألا يا عباد الله هذا عدوكم وهذا عَدُوُّ الله إبليسُ فاقتلوا

فقال لها: هذا مقامُ العائذِ بك، قالتْ: قم فارحلْ خاسئًا مذمومًا، وإذا نزلتَ بقومٍ فلا تنشد فيهم شعرًا حتى تعرفَ من هم، ولا تتعرض للمباحث عن مساوئ الناس، فلكل

قوم إساءة وإحسان، إلا رسول رب العالمين، ومن اختاره الله على عباده، وعصمه من عدوه، وأنت كما قال جرير للفرزدق:

وكُنْــتَ إذا حَلَلْــتَ بــدار قــومٍ رَحَلْتَ بِخَزْيَةٍ وتَرَكْــتَ عَــارا

فقال لها: والله لا أنشدت بيتَ شعرٍ أبدًا[١].

وممن نسبوا الشعر إلى غير قائله من الشعوبية أبو عبيدة، فلم يكن للعرب حرمة في نفسه، إذ ليس بعربي بل في نفسه الكراهة لهم، فهو يطلق لسانه في هجوهم، وذكر مثالبهم، ويبحث عن معايب العرب، والتشهير بهم، وكان يقصد مــن وراء نســبة الشعر إلى غير قائله إفساد الأدب العربي، وإضاعة معالمه، حتى لا يكون للعــرب أدب موثوق به[٢]. فمن ذلك ما يُروى من شعر رواه أبو عبيدة ونسبه إلى العرندس الكلابي يمدح بني عمرو الغنويين، وهو قول الشاعر:

هَيْنُونَ لَيْنُــونَ أيْسَــارٌ ذَوُو كَــرَمٍ سُــوَّاسُ مَكْرُمَــةٍ أبنــاءُ أيســارِ

إن يُسألوا الخيرَ يُعْطُوه وإن خُبِروا في الجَهْد أُدْرِك منهم طِيبُ أخبارِ[٣]

الرد على هذا الطعن:

قد تصدى للرد على حماد الراوية في الطعن على العرب، ودس الشــعر علــيهم، المفضل الضبي الراوية الموثوق به، وذلك بمساعدة الخليفة المهدي، حيث يُــروى اجتماع عدد من الرواة العلماء بدار الخليفة المهدي، إذ خــرج بعــض أصــحاب الحاجب فدعا المفضل الضبي الراوية فدخل، فمكث مليًا، ثم خرج هذا الرجل ومعه حماد والمفضل جميعًا، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم، وفي وجه المفضــل

---

(١) ينظر: مروج الذهب، ج٣، ص٢٢٦ــ٢٣٣.
(٢) ينظر: ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج١، ص٨٩، ٩٠.
(٣) التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، تأليف الإمام اللغوي أبي عبيد عبدالله بن عبــدالعزيز البكري، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م، ص٧٢.

السرور والنشاط، ثم خرج الخادم فقال: يا معشر من حضر من أهل العلم، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حمادًا الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل بخمسين ألفًا لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعرًا جيدًا محدثًا فليسمع من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل، فسأل الحاضرون عن السبب، فأخبرهم أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده: إني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال: دع ذا وعد القول في هرم، ولم يتقدم له قبل ذلك قول، فما أمر نفسه بتركه؟ فقال له المفضل: ما سمعتُ يا أمير المؤمنين في هذا شيئًا إلا أني توهمته كان يفكر في قوله أو يروّى في أن يقول شعرًا فعدل عنه إلى مدح هرم وقال: دع ذا، أو كان مفكرًا في شيء من شأنه فتركه، وقال: دع ذا، فأمسك المهدي عنه، ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل، فقال: ليس هكذا، قال زهير يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قال؟ فأنشد:

لمن الديارُ بقَنَّةِ الحِجْرِ ... أقوينَ مُذْ حُجَجٍ ومُذْ دَهْرِ
قفرٌ بمندفع النجائب من ... ضفوي أولاتِ الضالِ والسدرِ
دعْ ذا وعدِّ القولَ في هرم ... خيرِ البداةِ وسيدِ الحضرِ

فأطرق المهدي ساعة، ثم أقبل على حماد فقال له: قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبرٌ لابدَّ من استحلافك عليه، ثم استحلفه بأيمان البيعة، وكلِّ يمين محرجة ليصدقنّه عن كل ما يسأله عنه، فحلف له بما توثق منه، فقال له: أصدقني عن حال هذه الأبيات، ومن أضافها إلى زهير، فأقرَّ له حينئذ أنه قائلها، فأمر له وللمفضل بما أمر به من صلة وشهرة أمرهما وكشفه[1].

(1) ينظر: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٧١١.

كما تصدى لحماد الراوية الأصمعي حين قال: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية، إلا نُتَفًا سمعتها من الأعراب، وأبي عمرو ابن العلاء[١].

كما ذكر أبو الفرج الأصفهاني عن رواته أن حمادًا الراوية قدم على بلال ابن أبي بردة البصرة، وعند بلال ذو الرمة، فأنشده حماد شعرًا مدحه به، فقال بلال لذي الرمة: كيف ترى هذا الشعر؟ قال: جيدًا، وليس له. قال: فمن يقوله؟ قال: لا أدري، إلا أنه لم يقله. فلما قضي بلال حوائج حماد وأجازه، قال له: إن لي إليك حاجة، قال: هي مقضية. قال: أنت قلت ذلك الشعر؟ قال: لا، قال: فمن يقوله؟ قال: بعض شعراء الجاهلية، وهو شعر قديم، وما يرويه غيري، قال: فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك؟ قال: عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام[٢].

أما خلف الأحمر، فقيل أنه "نَسَك، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالاً عظيمًا خطيرًا على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه، فأبى ذلك، وقال: قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه، وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية؛ لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه، وبلغ مبلغًا لم يقاربه حماد، فلما تقرّأ ونَسَك خرج إلى أهل الكوفة، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس، فقالوا له: أنتَ كنتَ عندنا في ذلك الوقت أوثَقَ منك الساعة، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم"[٣].

وفي الرد على الحكاية التي ذكرها الهيثم بن عدي، فواضح أنها من وضع الشعوبية، أو من وضع الهيثم بن عدي نفسه، يرمي واضعها إلى ذكر مثالب القبائل

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي، ص٤٤٠.
(٢) مصادر الشعر الجاهلي، ص٤٤٢.
(٣) مراتب النحويين، ص٤٧.

العربية[١]. فقد قيل أن الخليفة أبو العباس عبدالله بن محمد السفاح كان يعجبه مسامرة الرجال، فحكى يزيد الرقاشي له هذه الحكاية على لسان الهيثم بن عدي الطائي، فقال السفاح مخاطبًا الهيثم بن عدي: لئن كُنتَ عملتَ هذا الخبر، ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار فلقد أحسنت، وأنت سيد الكاذبين، وإن كان الخبر صدقًا وكنتَ فيما ذكرته محقًا فإن هذه الجارية العامرية لمن أحْضَر الناس جوابًا، وأبصرهم بمثالب الناس[٢].

وقد رد الأصمعي على أبي عبيدة في نسبة الشعر إلى غير قائله، فقال: محال أن يمدح كلابي غنويًا لما بينهما من العدواة، وقد أنكر الأصمعي أن يكون كلابي مدح عنويًا؛ لأن فزارة كانت قد أوقعت ببني أبي بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب وقعة عظيمة، ثم أدركتهم غَنِيٌّ فاستنقذتهم، وفي ذلك يقول طفيل الغنوي:

وحَيَّ أبي بكرٍ تداركنَ بعدَ ما أذَاعَتْ بسَرْبِ الحيّ عنقاءُ مُغْرِب

فلما قتلت طيئ قيس الندامى الغنوي، وقتلت عبس هريم بن سنان الغنوي استغاثت غَنِيٌّ ببني أبي بكر، وبني محارب ليكافئوهم بيدهم عنهم، فقعدوا عنهم ولم يجيبوهم، فلم يزالوا بعد ذلك متدابرين، وأدرك غَنِيٌّ بثأر قيس الندامى من طيئ، وقال في ذلك طفيل:

فذوقوا كما ذُقْنا غَداةَ مُحَجَّرٍ من الغَيظ في أكبادنا والتَّحَوُّبِ[٣]

وللرد على الشعوبية أيضًا طلب الخليفة المهدي من المفضل الضبي عمل الأشعار المسماة المفضليات، وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه[٤]. ومن بين هذه القصائد بعض المقطوعات،

---

(١) ينظر: ضحى الإسلام، ج١، ص٨٩.
(٢) ينظر: مروج الذهب، ج٣، ص٢٢٦، ٢٣٣.
(٣) التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، ص٧٣.
(٤) الفهرست، ج٢، ص٧٥.

وهذه القصائد والمقطوعات لسبعة وستين شاعرًا، وأكثر هؤلاء الشعراء ــ أي سبعة وأربعون منهم ــ من شعراء الجاهلية، وبينهم المرقشان الأكبر والاصغر، وهما أقدم الشعراء المعروفين، ونصرانيان اثنان وهما جابر بن حنيّ التغلبي، وعبد المسيح. ومن شعرائه كذلك أربعة عشر شاعرًا من المخضرمين الذين ولدوا في الجاهلية، وأدركوا الإسلام، ثم ستة فقط من الإسلاميين، وسمي المفضل مجموعته في الأصل كتاب الاختيارات، ولكنها سميت بعد ذلك، نسبة إلى جامعها، بالمفضليات[١].

وردًا على الشعوبية أيضًا ومحاولاتها لتشويه الشعر العربي ببث فيه ما ليس منه، جمع الأصمعي جملة من أشعار العرب تشتمل على (٧٢) قصيدة ومقطوعة، ومجموع أبياتها (١١٦٣) بيتًا، وعدد شعرائها واحد وستون شاعرًا، لم يسم ثلاثة منهم، وخمسة مجهولون لا تعرف أسماؤهم من مصادر أخرى، وأكثر الباقين من شعراء الجاهلية، إلا أربعة عشر شاعرًا من المخضرمين والإسلاميين، وفيها قصيدة لكل من امرئ القيس وطرفة، وقيل إن الأصمعيات لم تلق ما لقيته المفضليات وغيرها من الانتشار والقبول؛ لأنها أقل اشتمالاً على غريب العربية؛ ولأن الأصمعي عمد فيها إلى اختصار الرواية[٢].

وردًا على الشعوبية أيضًا جمع البحتري مختارات من أشعار العرب أطلق عليها اسم الحماسة، كما جمع أبو زيد القرشي مجموعة من أشعار العرب سُميت جمهرة أشعار العرب. "وقد جمعت في أواخر المائة الثالثة للهجرة، وهي مجموعة سباعية تشتمل على سبعة أقسام، أولها المعلقات السبع، وتحمل الأقسام الستة الباقية حُليً من العناوين المختارة، وهي: المجمهرات، المنتقيات، المذهبات، المراثي،

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، الجزء الأول، نقله إلى العربية د/ عبدالحليم النجار، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة (بدون تاريخ)، ص٧٣.
(٢) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ج١، ص٧٤.

المشوبات، الملحمات. وعلى حين يشتمل القسم الأخير على قصائد لشعراء العصر الأموي فحسب، تغلب على الأقسام الأخرى قصائد الشعراء الجاهليين، وسبقت ذلك كله مقدمة في المجازات واختلاف العلماء في تفضيل بعض مشاهير الشعراء"[١].

وإلى جانب هذه المجاميع الشعرية ألف محمدبن سلام الجمحي (ت:٢٣١هـ) كتاب "طبقات الشعراء"، وألف ابن قتيبة "الشعر والشعراء"، وألف ابن المعتز كتاب "طبقات فحول الشعراء"، كما ألف عدد آخر من الأدباء العرب كتبًا في موضوع الشعر ومعانيه، وفي الشعر الموضوع وغيره، وحفظ لنا الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين"، وأبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني"، مجموعة من أشعار العرب، فكان لهذه الجهود أثرها في حفظ الشعر العربي من الضياع، ووضع الأسس لمعرفة الأشعار الأصيلة من الأشعار المنحولة، فتمكن العرب من خلال هذه المجموعات الشعرية، والدراسات الأدبية، الوقوف على تاريخهم، ولغتهم وأنسابهم، وكانت خير رد على تخرصات الشعوبية، مما يدل دلالة واضحة على مبلغ بلاغة العرب وفصاحتهم وعلو مكانتهم الأدبية والفكرية[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) ينظر: الشعوبية حركة مضادة للإسلام، ص١٩١.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد،،،

فبالبحث والدراسة في هذا الموضوع تسنى لي أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي كالتالي:

أولاً : الشعوبية حركة ثقافية سياسية، تعصبت للعجم، انتحلت الإسلام ظاهرًا، وأيقظت العداوة له باطنًا، معتقدة حيازة الحضارة والرقي للعجم، والبداوة والتدني وخشونة العيش للعرب.

ثانيًا : حمل لواء الشعوبية من لم تتشبع روحهم بتعاليم الإسلام من الموالي ممن فسدت نياتهم، وخبثت معادنهم، وأما من حسنت نياتهم، وطابت معادنهم فكانوا بركة على الدنيا والدين، وكان منهم الأدباء والعلماء الذين تولوا الرد على هؤلاء مع غيرهم من المخلصين والمنصفين.

ثالثًا : النزاع الداخلي الدائر بين الأخوة وأبناء العمومة، والرغبة في الاستئثار بالخلافة، والهيمنة، والسلطة في كل من الدولتين الأموية والعباسية عمل على ظهور الشعوبية وازدياد نفوذها.

رابعًا : لا يمكن حصر ظهور الشعوبية في سبب بعينه من إيثار العرب على الموالي عند بني أمية، ولا تقريب الموالي واتخاذهم قادة عند بني العباس، ولا النزاع الداخلي بين أطراف الحكم في الدولتين، ولكن أيضًا أطماع الفرس وغيرهم ورغبتهم في عودة نفوذ ملكهم وهيمنة دولتهم.

خامسًا : الهدف الرئيس للشعوبية تشويه التاريخ، والتراث العربي، وتزييفه بالطعن عليه كتمهيد لتيسير سحب البساط بعد الحرب الباردة التي من سحرها زلزلت

النفسية فالعقلية لدى الأمة العربية والإسلامية، وقد قالوا إن من البيان لسحرًا، ولكن هيهات، إذا حسنت النيات، وصحت الملكات، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

سادسًا : الشعوبية قديمًا وحديثًا مناهضة للكيان العربي والإسلامي، يلتقي أطرافها شرقًا وغربًا على هدف واحد هو الحط والنيل من الكيان العربي والإسلامي؛ لأنه أدال دولهم، وهز معتقدهم، وقيمهم كل ذلك في آن واحد بما يثبت تفوقه على الجميع مجتمعين.

سابعًا : كثرة النصوص النثرية المتناولة للشعوبية والكتب العلمية المؤلفة في هذا الخصوص، وفي بيان فضل العرب على غيرهم في مختلف العصور يكذب ادعاء من يزعم أن تناول هذه القضية إنما كان من خلال الشعر وحده.

ثامنًا : تصوير النثر الفني مطاعن الشعوبية على العرب، وكذا الرد عليها إنما هو عمل علمي خلاق، إذ إنه فنيت فيه الأقلام وبقي جميل الكلام، فنيت الأشخاص وبقي الإخلاص الذي خلق خطابًا أدبيًا جديدًا يمكن أن نطلق عليه أدب الشعوبية.

تاسعًا : ثبت من خلال البحث أن العرب بعيدين كل البعد عما أرادت الشعوبية أن تسمهم به، فقد صحت أنسابهم، وكفاهم أن إبراهيم كان أمة، وأنه أسكن إسماعيل وأمه فيهم بأمر ربه، وأنهما بنيا بيته الحرام في قلب جزيرتهم، وأن خاتمة الرسالات وجوهرة الأمانات في محمد النبي العربي الهاشمي القرشي، والعبرة بالخواتيم مع الصادق الأمين.

وتمام الفضل وكمال العدل .. اللهم آمين.

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

أولا:- المصادر

ـ القرآن الكريم .. كتاب الله المعجز.

١ـ أدب الدين والدنيا، تأليف العالم القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، شرح محمد كريم راجح، ط دار اقرأ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

٢ـ الأزمنة والأمكنة، تأليف الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، ضبط خليل المنصور، ط دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٣ـ الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، تقديم: أ.د محمد عبدالمنعم البري، د. عبدالفتاح أبو سنة، د. جمعة الطاهر النجار، ط دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م.

٤ـ الأعلام، تأليف خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

٥ـ الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق: د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، الأستاذ/ بكر عباس، ط دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ ـ٢٠٠٨م.

٦ـ أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسي، ط مطبعة الدولة، تونس، الطبعة الأولى ١٢٨٥هـ ـ١٨٦٨م.

٧ــ أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ ــ١٩٥٤م.

٨ــ الإمتاع والمؤانسة، تأليف أبي حيان التوحيدي، شرح أحمد أمين، أحمد الزين، ط دار مكتبة الحياة (بدون تاريخ).

٩ــ البخلاء للجاحظ، تحقيق طه الحاجري، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة (بدون تاريخ).

١٠ــ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، شرح: محمد بهجة الأثري، ط دار الكتاب المصري، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

١١ــ البيان والتبيين، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، تقديم: أ.د عبدالحكيم راضي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة (بدون تاريخ).

١٢ــ البيان والتبيين للجاحظ، ط مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ ــ١٩٩٨م.

١٣ــ تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

١٤ــ التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، تأليف الإمام اللغوي أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

١٥ــ الجامع الكبير للترمذي، تحقيق: د. بَشّار عواد معروف، ط دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٦ــ الجذور التاريخية للشعوبية، د. عبدالعزيز الدوري، ط دار الطليعة، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٨١م.

١٧ــ الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية١٣٨٧هـ ــ١٩٦٨م.

١٨ــ رسائل البلغاء، جمع محمد كرد علي، ط دار الكتب العربية الكبرى ١٣٣١هـ ــ١٩١٣م.

١٩ــ رسائل الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط مكتبة الخانجي (بدون تاريخ).

٢٠ــ الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، تأليف د. حسين عطوان، ط دار الجيل ــ بيروت (بدون تاريخ).

٢١ــ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط دار إحياء الكتب العربية (بدون تاريخ).

٢٢ــ سنن أبي داود، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، عبداللطيف حرز الله، ط دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ــ٢٠٠٩م.

٢٣ــ شرح الجامع الصغير للعلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تقديم: الشيخ صالح بن محمد اللحيدان، والشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، ط دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ ــ٢٠١١م.

٢٤ــ الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، د. عبدالله سلوم السامرائي ط دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٨٠م.

٢٥ــ صحيح البخاري، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ــ١٩٩٣م.

٢٦ــ ضحى الإسلام لأحمد أمين، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

٢٧ــ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: د. عبدالمجيد الترحيني، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٢٨ــ فضل العرب والتنبيه على علومها لابن قتيبة، تحقيق: د. وليد محمود خالص، ط المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٩ــ الفهرست ــ في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ــ تأليف محمد بن إسحاق النديم المعروف بأبي يعقوب الوراق، تحقيق: رضا تجدد، (بدون طبعة ولا تاريخ).

٣٠ــ لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، ط دار المعارف (بدون تاريخ).

٣١ــ المحاسن والأضداد، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، ط مكتبة الخانجي، القاهرة (بدون تاريخ).

٣٢ــ مراتب النحويين، تصنيف أبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط نهضة مصر، القاهرة (بدون تاريخ).

٣٣ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مراجعة: كمال حسن مرعي، ط المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٥م.

٣٤ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف: د. أحمد معبد عبدالكريم، ط دار المنهاج (بدون تاريخ).

٣٥ــ معجم الأدباء ــ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ــ تأليف ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٣٦ــ معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، ط دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ ــ١٩٧٧م.

٣٧ــ مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق: الأستاذ/ خليل شحادة، مراجعة: د. سهل زكار، ط دار الفكر، بيروت ــ لبنان ١٤٢١هـ ــ٢٠٠١م.

٣٨ــ مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، ط دار يعرب ــ دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٤م.

٣٩ــ نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون، المجموعة الثالثة، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ــ١٩٧٣م.

ثانيا:- المراجع

٤٠ــ تاريخ الأدب العربي، تأليف عمر فروخ، ط دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

٤١ــ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة عشرة (بدون تاريخ).

٤٢ــ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة (بدون تاريخ).

٤٣ــ تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبدالحليم النجار، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة (بدون تاريخ).

٤٤ــ تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ط مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ــ١٩٨١م.

٤٥ــ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، ط دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٦هـ ــ١٩٩٦م.

٤٦ــ تاريخ التمدن الإسلامي، تأليف جرجي زيدان، تعليق: د. حسين مؤنس، ط دار الهلال ١٩٧٣م.

٤٧ــ ديوان أبي نواس، شرح: محمود أفندي واصف، ط المطبعة العمومية بمصر، الطبعة الأولى ١٨٩٨م.

٤٨ــ ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح: د. محمد حسين، ط المطبعة النموذجية، الناشر: مكتبة الآداب بالجماميز (بدون تاريخ).

٤٩ــ ديوان امرئ القيس، تحقيق: الأستاذ مصطفى عبدالشافي، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الخامسة ١٤٢٥هـ ــ٢٠٠٤م.

٥٠ــ ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، ط دار بيروت ١٤٠٠هـ ــ١٩٨٠م.

٥١ــ ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، ط وزارة الثقافة الجزائرية ٢٠٠٧م.

٥٢ــ ديوان حسان بن ثابت، شرح عبدأ على مهنا، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ــ١٩٩٤م.

٥٣ــ ديوان الحماسة، تأليف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، شرح: أحمد حسن بسج، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ١٩٩٨م.

٥٤ــ ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره، صنعه: يحيى بن مدرك الطائي، رواية: هشام بن محمد الكلبي، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، ط مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر (بدون تاريخ).

٥٥ــ ديوان شعر المتلمس الضبعيّ، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ١٣٩٠هـ ــ١٩٧٠م.

٥٦ــ ديوان عبدالله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، د. وليد القصاب، ط دار العلوم، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ــ١٩٨١م.

٥٧ــ ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عدرة، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ــ١٩٩٤م.

٥٨ــ ديوان كثير عزة، شرح: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت ــ لبنان، ١٣٩١هـ ــ١٩٧١م.

٥٩ــ ديوان كعب بن مالك الأنصاري، تحقيق وشرح: د. مجيد طراد، ط دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٦٠ــ ديوان المتنبي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط دار المعارف، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).

٦١ــ ديوان المتنبي، ط دار بيروت ــ لبنان، ١٤٠٣هـ ــ١٩٨٣م.

٦٢ــ ديوان نصر بن سيار الكناني ــ أمير خراسان ــ تحقيق: عبدالله الخطيب، ط مطبعة شفيق، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ ــ١٩٧٢م.

٦٣ــ شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات لابن النحاس، ط دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ).

٦٤ــ ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، إشراف/ زهير الشاويش، ط المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ ــ١٩٨٨م.

٦٥ــ العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، د. عبدالعزيز الدوري، ط دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.

٦٦ــ في الشعر العباسي: الرؤية والفن، د. عز الدين إسماعيل، ط دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٦٧ــ المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تأليف علي بن يوسف القفطي، تحقيق: حسن معمري، حمد الجاسر، إشراف الأستاذ شارل بلاَّ، ط جامعة باريس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٣٩٠هـ ــ١٩٧٠م.

٦٨ــ مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، ط دار القلم، بيروت ــ لبنان (بدون تاريخ).

٦٩ــ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدين الأسد، ط دار الجيل ــ بيروت، الطبعة السابعة ١٩٨٨م.

٧٠ــ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد ابن علي المقري الفيومي، تحقيق: د. عبدالعظيم الشناوي، ط دار المعارف، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

٧١ــ معجم الشعراء العباسيين، إعداد: عفيف عبدالرحمن، ط دار صادر، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٧٢ــ المعجم الوجيز، إعداد: مجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم ١٤١٤هـ ــ١٩٩٣م.

٧٣ــ المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، تأليف: د. عزيز فهمي، تحقيق: محمد قنديل البقلي، ط دار المعارف (بدون تاريخ).

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة.	٣٥٤٥
الفصل الأول **الشعوبية تاريخها ونشؤها**	٣٥٤٨
المبحث الأول : تعريف الشعوبية لغة واصطلاحًا	٣٥٤٩
ــ المعنى اللغوي للشعوبية.	٣٥٤٩
ــ المعنى الاصطلاحي للشعوبية.	٣٥٥٠
المبحث الثاني : الامتداد التاريخي للشعوبية.	٣٥٥٧
المبحث الثالث : الأسباب التي أدت إلى نشوء الشعوبية وشيوعها.	٣٥٨٠
الفصل الثاني **المطاعن التي وجهتها الشعوبية إلى العرب والرد عليها**	٣٥٨٩
المبحث الأول : الطعن في اللغة العربية وبلاغتها وقوة الخطابة بها.	٣٥٩٠
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٥٩٢
المبحث الثاني:الطعن على العرب في استعمالهم للعصا عند الخطابة	٣٦٠١
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦٠٢
المبحث الثالث: الطعن على العرب في أساليب قتالهم ومعداتهم الحربية.....	٣٦٠٨
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦١١
المبحث الرابع : الطعن على العرب في حضارتهم وثقافتهم.	٣٦١٧

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦١٩
المبحث الخامس : الطعن على العرب في الكرم الذي اشتهروا بـــه.	٣٦٩٠
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦٣٩
المبحث السادس : الطعـــن علـــى العـــرب مـــن خـــلال المـــرأة.	٣٦٤٩
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦٥٠
المبحث السابع : الطعـــن علـــى العـــرب فـــي أنســـابهم.	٣٦٥٩
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦٦٠
المبحث الثامن : الطعـــن علـــى العـــرب مـــن خـــلال الشـــعر.	٣٦٧٠
ــ الرد على هذا الطعن.	٣٦٧٤
الخاتمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة.	٣٦٨٠
فهـــــــــــــرس المصـــــــــــــادر والمراجـــــــــــــع.	٣٦٨٢
فهـــــــــــــــــــــرس الموضـــــــــــــــــــــوعات.	٣٦٩٠